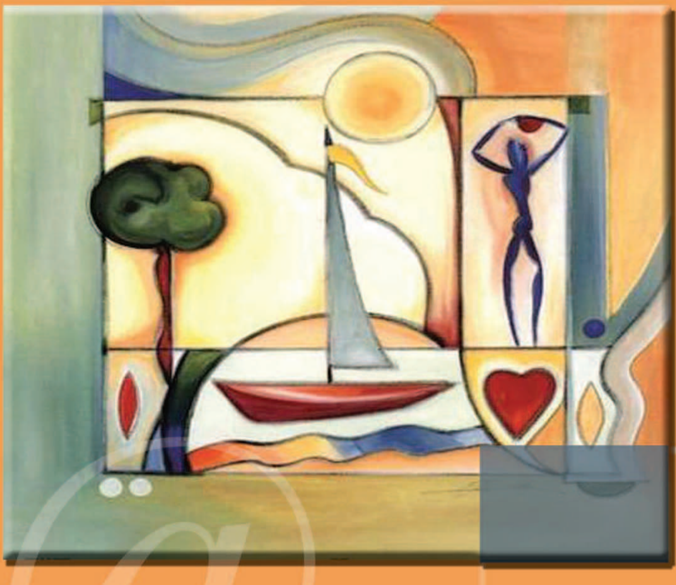
رواية

صندوق صغير فى القلب



ابتهال سالم

صندوق صغير في القلب

رواية

ابتهال سالم

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

السيدة التي جعلت من الكتاب وطنًا!

د. سمير سرحان

مرت عشر سنوات منذ إنشاء" مكتبة الأسرة" وأذكر أنه كان يوما مشهودا، حين جلسنا مع عدد من المثقفين والـوزراء والمفكرين حول تلك السيدة العظيمة التي كانت عيناها تشخص إلى السماء حيث أحلام كثيرة تدور بذهنها الذي لا يتوقف عـن التفكير أبدا.

كانت منذ سنوات قد أنهت رسالتها من الماجستير، التي كان من نتائجها ضرورة إصلاح أحوال المـدارس الابتدائيـة، ورفع مستواها العلمي والتعليمـي، وحتـى مسـتوى الأبنيـة والخدمات.. فكان الأساس في ذهنها، كما أدركـت بعـد ذلـك معظم الدول الكبرى أن العملية التعليمية هي أهـم مـا يميـز الأوطان، وأن الطفل الذي يمثل البذرة الأولى في بناء مسـتقبل أي وطن هو البداية الحقيقية، كنا نتعجب جميعا فـي صـمت ونحن جالسون حول تلك المائدة الصغيرة.. لماذا لم يفكر أحـد من قبل في الطفل، ولا أعني صحته فقط ، أو ما قد يصيبه من

أمراض، أو مستوياته الاقتصادية والاجتماعية.. لماذا لم يفكـر أحد في الطفل الإنسـان؟! أي فـي عقـل الطفـل ووجدانـه، والانطباعات المختلفة، التي يكتسبها من عملية التعلم، وبخاصة من القراءة الحرة، وليس قراءة الكتب المدرسية فقط.

وكان الطفل المصري في ذلك الوقت معتادا أن يمسـك بالكتاب المدرسي ويصب عليه كل ما في طاقتـه مـن كـره وسخط، ويحفظه حفظًا آليا بلا فهم، ويفرغ هـذا الفهـم علـى الورق لينجح وينتقل من سنة دراسية إلى أخرى، أما في آخـر السنة فكانت العادة أن يرمي الكتاب المدرسي من النافذة، كأنـه قد تخلص من عبء ثقيل.

كانت السيدة العظيمة، التي قدر لها أن تعني بمسـتقبل مصر، وأن تكرس حياتها لبناء هذا المستقبل، تفكر في الطفـل كإنسان، وكعقل، وكروح، .. لقد اكتشفت أن كل ذلك لا يـأتي إلا بالقراءة، والقراءة خارج المقرر الدراسي، كما لا يأتي أيضا إلا من خلال كتاب يوضع في يده ليحبـه شـكلاً ومضـمونًا، ويحتضنه في سريره وهو نائم، ويطلق من خلال المادة التـي

يقرأها فيه، العنان لخياله، فيسافر من خلال هذا الكتـاب إلـى عالم سحري من الأماكن والأفكار والمشاعر والرؤى.

لمعت العينان الذكيتان بعمق الفكرة، وأهميتهـا لـوطن يبني نفسه ويضع نفسه على مشارف القرن الحادي والعشرين، وبعد أربع سنوات من افتتاح المكتبات العامة في الأحياء الفقيرة والمعدمة، كانت الفكرة الرائدة قد اكتملت في ذهنها فأصـبحت سوزان مبارك صاحبة أعظم مشروع ثقافي في القرن العشرين وأوائل الحادي والعشرين.. "مكتبة الأسرة".

وكانت فكرة مكتبة الأسرة بسيطة وعميقة فـي نفـس الوقت، وهي أن نقوم بغرس عادة القراءة في نفـوس ملايـين أبناء الشعب الذين لم يكن الكتاب من قبل جزءا من حيـاتهم.. وأعتقد أن هذا الهدف قد نجح تماما، فقـد كـان بعـض مـن يسخرون من الشعب المصري، محـاولين الحـط مـن قـدره يصفونه بأنه شعب الفول والطعمية، وأعتقد أنه الآن وبعد عشر سنوات من صدور مكتبة الأسرة، أصبحوا يسمونه بـلا تـردد شعب الكتاب والقراءة والعلم والمعرفة.. لكن الهدف الأعمـق والأسمى كان إعادة بعث التراث الأدبـي والفكـري والعلمـي

والإبداعي الحديث لهذه الأمة، وهذا يؤكد بالفعل لا بالكلام ريادتها وقيادتها الثقافية والفكرية في عالمنا العربي، كما يؤكد عظمة ما جاء به عصر التنوير المصري لينقل العالم العربي كله من عصور الظلام المملوكية والاستعمارية إلى شعوب تعيش عصر العلم والتقدم، وتبني شخصيتها الثقافية وحضورها الثقافي على مدى العالم.

وها قد أصبحت مكتبة الأسرة بعد عشر سنوات من الجهد المضني والمتواصل تقدم أكثر من عشرة ملايين كتاب موجودة الآن في كل بيت مصري، تحمل صورة السيدة التي فكرت ونفذت هذه الذخيرة من الفكر والإبداع التي تثري عقل ووجدان كل مواطن طفلاً كان أم شابا، ليس في مصر فقط وإنما في العالم العربي كله.. وأصبحت المادة التي تضمها هذه الكتب هي أساس راسخ لتكوين مواطن المستقبل، وأصبحت معظم الدول العربية والمؤسسات الدولية تطلب تطبيق التجربة المصرية على أرضها.

هل كان مجرد حلم لسيدة عظيمة شخصت بنظرها إلى السماء باحثة عن المستحيل، أم كان مجرد حلم رائع، هائل

القيمة والحجم وتحقق. تحية لهذه السـيدة العظيمـة "سـوزان مبارك"، واحتراما وحبا بلا حدود على قدرتها لتخيل المستقبل، وبناء إنسان جديد لوطن جديد.

وستظل صورة السيدة سوزان مبارك موجودة على كل كتاب، وفي كل بيت تتذكر كل مصري أن الحلم الحقيقي لـيس بالمال، وليس بالتهافت على الماديات، إنما هو "المعرفة" وبدون معرفة في هذا العصر لا يوجد وطن، وإذا فقد الإنسان الـوطن فقد ذاته.. وإذا فقد الإنسان الوطن فقد ذاته.. بل فقد كل شـيء يربطه بهذه الحياة.

د. سمير سرحان

١ - الحي القديم

للأزمنة أصوات.

تشاطرك الليل والصمت والحنين.

تداخلك.. تحاصركِ.

مالك والغناء يا "مريم "، مالـكِ لا تبـوحين، تجـوبين الدروب، تفرين من زمنكِ الضيق، ومن نزف الروح تتساءلين:

- " امرأة رديئة أنتِ أم زمن رديء؟ أم تراكِ للمـرة الألف على حصان خاسر تراهنين؟ "

وحدكِ .. تسيرين بخطى ثقيلة، تدك الساعات رأسـكِ دكًا.

وحدكِ ... والأرصفة الموحلـة والحوانيـت وحبـال الغسيل والشرفات المعتمة.

تمرين بين محل عصير ودكان بقالة، لتصلي إلى بيـت قديم يطل على مقهى.

ارتميتِ على أول مقعد صادفكِ، خلعتِ حذاءكِ، ألقيتـه بعيدا.

مددتِ ساقيكِ على حافة المنضدة.

كانت أمكِ، تتباهى دومـا، بأمثالهـا الشـعبية وتقـر وعروقها نافرة:

" إنها والله الحق ".

تتسابقين وإخوتكِ للالتفاف حولها، يسـتفزها نقـاركم المتواصل وفوضى الأشياء، تخلع حـذاءها المـزوق بحبـات الخرز وتلاحقكم في أرجاء المنزل.

آخر أمثالها الشعبية، قالتها وقد زحـف الشـيب علـى رأسها وتسلل السكر إلى عينيهـا الجميلتـين وطبـع مكانهمـا بصماته السوداء.

قالت: " فلتعلمي يا ابنتي، ولتضعي ما أقوله قرطًا فـي أذنيكِ، أن الحياة دائن ومدين، ومن قدم السبت وجد الأحد فـي انتظاره ".

وأنت قد راهنتِ على كل الأيام يا " مريم" ولم يعد لـكِ من فرار إلا هذا البيت، بيت الجدة.

قمتِ حافية، تتنقلين بين الأثاث القديم.

داهمكِ ظله.

أينما تتحركين، يتحرك معكِ.

وقفت أمام صورتها الباهتة، دققت في عينيها، رأيـت شعاعا يمتد خارجها، مشيتِ خلف الشعاع، وصلتِ إلى غرفـة النوم، وفي ركنها وقف صندوق الجدة وحيدا، صامتًا.

اقتربتِ منه، فتحتِهِ ببطء، تلاشى الشعاع، غطى الغبار وجهكِ

قلبت في محتوياته، فردتِ بين يديكِ فسـتانًا مطـرزا بخرج النجف، نفضتِ عنه الأتربة، إنه الفستان الـذي ارتدتـه جدتِك ليلة الدخلة.

يا ألله... ألا زلتِ تحتفظين به يا جدة، رغم لونه الكالح والثقوب التي أحدثتها العتة في قماشه.

وما هذا ... إنه طربوش الجد، لكن، أين زره اللامع؟

آه... يا جدة... أذكر، أنكِ كنتِ تجلسين القرفصاء فوق الكليم في فسحة المنزل، أمامكِ السبرتاية، والأكواب الصـغيرة وبجواركِ علبة النشوق وبرطمانات السـكر والـبن والقرنفـل المطحون، نتبادل الحكي والضحك، أبوح لكِ عـن أول نبضـة قلب لابن الجيران، والأوقات المختلسة معه في حـوش البيـت وفوق السطوح.

تقلبين فنجان القهوة وتبتسمين قائلة:

- إنه لعب عيال وسوف تنسينه حين تكبرين.

يومها.. شردت عيناكِ في حبكِ الأول يا جدة وحكيـتِ أن عمركِ وقتها كان أحد عشر عاما.

كان اسمه" حسن" ابن عمكِ، شب عن الطوق معـكِ، تربيتما سويا وسط الغيطان تتسـلقان الأشـجار وتصـطادان الضفادع وتعدوان فرحين بين المزارع.

كنتِ ترينه أجمل صبي في القرية، ودوما، كانت أمـه تخاف عليه من الحسد أما أنتِ يا جدة فكنت تخافين عليه مـن البنات والسير ليلاً على شاطئ الترعة إذ إن النداهة قد سـكنت الماء، وكانت ذات حسن خلابة، نصفها إنس ونصفها جان وإذا أعجبها صبي من الغلمان، اختطفته في الحال، وغاصت معـه إلى مملكتها في القاع، حيث يقام العرس وتتزوجه دون إبطـاء ولا يعرف أهل الأرض له طريقًا، ولا يبقى منه إلا سيرة على مر الزمان.

ووقع المقدر، إذ شاهدت النداهة" حسن " كما ولدته أمه يسبح في ماء الترعة.

سبحت من حسنه، قائلة:

"سبحان الخالق الوهاب، تلك هبة من السماء" .

وأطلقت صيحة، جعلتكِ تفزعين يا جدة، صغيرة بعـد، تحملين الهدوم على الشط.

تنادين على ابن عمك، تصرخين، يخرج "حسن " جريا من الماء، تركضان معا تلهثان، تتواريـان، خلـف الأشـجار والعيدان.

اختنق القمر، ونعق الغراب، نزلت غمامة سوداء بـين "حسن" والماء، لطمت النداهة خديها، شقت صـدرها، وعـوت على فراق "حسن"، ولكنها أبدا لم تنسه، ظلت عيناها تخرج كل مساء، مفتشة عنه، أما أمه فكانـت تجـوب الطـرق وخلفهـا الصغار، يخبطون أغطية الحلل والطاسات ليطردوا الشيطان.

وتضع تحت وسادة ولدها خبزا ومقصا وحجابا.

وانتقل الأهل إلى المدينة، وقرءوا الفاتحـة، وتـم لـم الشمل على ابن عمك يا جدة لكن العشق الذي لم يكن للنداهـة على بال، لم يهدأ؛ نَشَرت شعورها أشرعة فوق سماء المدينـة وأذرعتها في أزقتها وحواريها.

أهدت إلى الشمس لؤلؤة من عينها، وإلى القمر حبة كرز من ثديها، ليتعاونا معا في البحث عن " حسن ".

وحدث، ذات مغربية، أنكِ كنت تتمشين يا جدة وابن عمك في الشارع الطويل المؤدي إلى النهر وقد صرتِ امرأة مكتملة الأنوثة.

وفي لحظة التقاء الشمس بالقمر، برقت عين السماء، وفي ثوان كان حسن في حضن النهر مع النداهة.

نفضت التراب عن مكحلة الجدة يا مريم، تلك المكحلة الفضية العتيقة، ذات اليد المنقوشة، نقشًا إسلاميا.

كنت ترقبين الجدة، وهي تخط الكحل، راسمة خطاً أسود رفيعا في طرف العين، تقلدينها، تدمع عيناكِ يا "مريم" ورغم ذلك، لا تكفين عن المحاولة.

رفعتِ يد المكحلة بحذر، تراءى لكِ طيفًا يخرج منها قائلاً:

- شبيك .. لبيك

تراجعتِ بظهرك فزعة، دققت فيه، كان طيف الجـدة، طلبت الأمان الذي تقايضين عليه بالإنس والجان وكنوز الدنيا يا "مريم".

واختفى الطيف فجأة وكأنه ما كان.

عدتِ إلى الصندوق، شددتِ طرف الشال الذي غزلتـه الجدة وأنتِ قابعة تحت قدميها، تمسكين بكرة الصوف، تسـقط البكرة من يدكِ، أحيانًا، فتجرين على يديكِ وركبتيـكِ خلفهـا، تحت المقاعد والمائدة ودولاب الفضيات، ويا لـه مـن دولاب فضيات، كنتِ تقفين أمامه بالساعات، تتأملين زجاجـه البـراق وقطع الصيني الصغيرة المنقوشة بالزهور والبنات والصـبيان، والبراد ذا العنق الصغير والملاعق الفضية اللامعـة وفنـاجين القهوة والشاي وأدوات دقيقة بأحجام مختلفة.

ورثت الجدة دولاب الفضيات عن أمها، وورثته أمهـا عن جدتها، وهكذا ظلت الأواني صامدة في انتظار عرسكِ الذي طال يا مريم ، ولكن، من أين يأتيكِ الفرح وقد حار الجميع في المراهنة على استقراركِ.

جلستِ بين الصمت والحنين.

ليل الشتاء طويل والوخز في قلبك لا ينقطع.

أسندتِ رأسكِ على ظهر المقعد، مبتلعة دخانكِ الحارق.

حماتِ حذاءكِ وخطوتِ في الممر المؤدي إلى غرفـة النوم.

أغلقتِ الصندوق، فردتِ ظهرك على السرير النحاسي للجدة، ووميض يشع داخل روحك:

" أهواك وأتمنى لو أنساك "

وأنسى روحي وياك.. "

تقلبتِ في الفراش.

كنت على عشق بأغاني " عبد الحليم "، وأبدا، يا جـدة، لم يكن الصبي ابن الجيران واسمه " سعيد "، مجرد لعب عيال.

انفلت قلبك منك إلى الحي القديم، حيـث كـان يقطـن "سعيد " في نفس البيت الذي تقطنين يا مريم.

كان البيت من الطراز الكلاسيكي القديم، أسقف عاليـة وشرفات واسعة، ونقوش رومانية دقيقة على الجدران.

" أم سفير" القبطية: امـرأة خمريـة اللـون، عيناهـا بقريتان، ذات قامة مديدة، أما زوجها، فنحيف، قصير، شـعره

زاحف للوراء يضع على عينيه نظارة سميكة الزجاج ويعمـل في صيدلية تقع على ناصية الشارع وغالبا ما يحتاجـه أهـل البيت في استشارات طبية وخلافه.

كانت أم سفير، طيبة القلب، سمحة الوجه، لديها ابنتان "بثينة " و "أحلام" وولد اسمه " سفير" .

تجدها دوما معتدة بنفسها، معتنية بملابسها وزينتها في المواسم، تبعث إلى أمك صحن الطعمية الساخنة وتحمِل أمـك إليها صحن العاشوراء.

أما " أم مينا "، فكانت أرمنية الأصل، شاهقة البيـاض عيناها في زرقة البحر، يكبرك ابنها بعـام، وتصـغرك أختـه "تريزا " بعامين، شقراوان مثل أمهما، أما والدهما، فيعمل فـي التجارة، ويملك دراجة بخارية، يتشاجر الأولاد في الشارع على ركوبها، ويصرخ "أبو مينا" من شرفته، متوعدا وترمي امرأتـه مياها متسخة فوق رؤوسهم.

أما " أم سعيد "، فكانت امرأة سمراء اللـون، بشوشـة الوجه لديها ولدان:

" سعيد " و " أحمد "، وكان " سعيد "، صديق صباك يا " مريم "، وكاتم أسرارك الصغيرة، تميزين صفارته من حوش المنزل.

تنزلين مسرعة إليه، تضمكما فرحتكمـا، تتحـاوران، تضحكان، تتشاجران تتصالحان.

كنتما تذهبان سويا إلى المدرسة، وتعودان مـن نفـس الطريق إلى البيت، تبتاعان البطاطا الساخنة المعسلة، والدوم.

تلقيان حقيبتكما على الرصيف وتلعبان في الشارع إلى أن ينال منكما التعب وتنتبهان إلى الوقت المسروق من زمنكما البريء، تحملان حقائبكما وتتسابقان وتتراهنـان، مـن منكمـا يصل قبل الآخر.

كنتما تتسـللان إلـى السـطح، تجلسـان، تتناجيـان، يتوسطكما الراديو الترانزستور والفرح، تدندنان مع أغاني "عبد الحليم حافظ ونجاة".

وتشتركان، أحيانًا، في صنع طـائرة ورقيـة، ملونـة تطلقانها معا، فتعلو، وتعلو، متخطية طائرات الجيران، وتحلـق

قلوبكما إلى أبعد فضاء، سعيا خلف الطيور المهـاجرة أوقـات المغارب.

أما "أم راشيل"، التي تقطن الدور الأرضـي، فكانـت مائلة إلى البدانة، مات زوجها، وكان تاجر شنطة معروف فـي الحي، واسمه" زكي"، ورثت عنه بعض المال والشطارة.

كانت خياطة الدار، تحيك الملابس في الصيف والشتاء والمواسم والأعياد، ولا يكف صوت ماكينتها عن الدوران فـي الليل أو النهار، أما ابنتها "راشيل" فكانت منطوية تخشى اللعب مع الصغار، وتكتفي بمساعدة أمها في المنزل والحياكة حتـى أضحت ماهرة مثلها.

ورغم أن ديانتها يهودية، إلا أنها كانت تعتز بمصريتها وتردد أنها سوف تحيا وتدفن في ترابها.

وكنتِ كل يوم جمعة، تطلين من شباك المنور يا " مريم " في انتظار صفارة " سعيد " وبعد سـماعها، تبتلـع أقـدامك درجات السلم، يحسب كلاكما قروشه القليلة، تطيران معا إلـى أماكن المراجيح والسواقي القلابة وصندوق الدنيا والبيانولا.

تقفزان في مرجيحة واحدة، يجدف " سـعيد " بقدميـه فرحا يجدف بقوة، تجدفين معه، تقبضان بأيديكما النحيلتين على الحديد، وهووب... تتشعلقان في الهواء وتطلقـين وصـاحبك صيحات نشوة ممتزجة بخوف.

وتدور بكما الساقية القلابة وتدور معها السماء والأرض والناس.

وتسمعان النداء: " قرب .. قرب .. وعلـى صـندوق الدنيا اتفرج، دنيا العجايب في صندوق العجايب ".

تتسابقان، ملبيان النداء، تجلسان علـى دكـة صـغيرة أمامها صندوق خشبي مغطى بغطاء أسود، على أحد جوانبه يد معدنية، يدورها صـاحب الصـندوق ذو الشـعر المصـبوغ والسروال الملون والقميص الأرجواني.

تدفسان رأسيكما داخل الصندوق، تنسدل ستارة سـوداء فوق دماغيكما، تتسع عيناكما محدقتين في الصـور المتعاقبـة للأمير والأميرة والساحر الشرير والجميلة والأقزام وصـاحب الصولجان وأبو زيد والزناتي خليفة يدور الرجل للعجلة وتدور الصور.

تراك:

" وآدي الفارس الهمام، راكب حصانه، شـاهر سـيفه يصرخ بعزم صوته: هل من منازل؟ أنا أبو زيد الهلالي بطـل الأبطال وفارس الفرسان سيفي مسلول وأصلي مكنون، أطوف بحصاني في المدن والبراري وأنـزل بعزمـي علـى رقـاب الأعادي وأحرر المظلومين ".

تراك:

" ويا سلام، على ست الحسن والجمال، بتجري فرحانة بين الغيطان، تغني لها الشمس، وتحرسها العصافير ويا ولداه.. تتسحب أم الدواهي متنكرة في زي بياع، تغريها بأكل التفاحـة وهووب.. تروح الأميرة في خبر كان، وآدي الأمير الجميـل، شايفينه، لمح حسنها وسمى بالرحمن وأول ما قرب منهـا ردت فيها الروح في الحال وانفك سحرها الذي كان، وعاشـت مـع أميرها في تبات ونبات وخلفوا صبيان وبنات ".

تراك:

" ودي بنت السلطان القبيحة، اللي ما جرؤ يشوفها فـي موكبها غير جدع عربي شجاع، ومن يومها وهي واقعـة فـي

هواه ولما زاد جفاه، سلطت عليه الساحر الشرير، وتبات بنـت السلطان مغلوبة على أمرها وتطفش ولا حد يعرف لها طريق "

وتتلاصق رأساكما، أنت و " سـعيد " تحـت الغطـاء الأسود لصندوق الدنيا وتبحلقان في الصور، منصتين للحكايات إلى أن يظلم الصندوق تماما وتكف العجلة عن الدوران تجريان إلى مكان آخر في حارة العيد، وقد خبأ كل منكما داخل روحـه الصغيرة صندوقه.

تي.. تارا.. تي .. تا..

تتوجهان بعد أن امتلأ رأساكما بالحكايات إلى البيانولا

تي .. تارا.. تي

تصفقان، ترقصان، تدوران مع النغمات، تقفزان أمـام صاحب البيانولا ذي الوجـه الملـون بالمسـاحيق وملابسـه المهرولة وقبعته وعصاه.

ويدندن صاحب البيانولا مع الموسيقا الصادحة ويـدور عجلة البيانولا راقصا ومستمتعا مع الصغار الملتفين حوله.

وحين تكف الموسـيقا، تعـاودان المشـي، أياديكمـا متشابكة.

تقفان أمام لوحة نيشان، متراص على حبالها، عدد من المفرقعات الصغيرة والكل يجرب حظه، الصغار والكبار والذي يفوز في النيشان، يحصل على لعبة قد تكون عروسة أو دبا أو زمارة وربما كرة أو أرنبا أو حصانًا وتمسـكين البندقيـة يـا "مريم"، تراهنين على العروسة ذات الرداء الأحمـر والحـذاء الأبيض والشريط البرتقالي ويراهن " سعيد " على الدب.

تضعين يدك على الزناد، تصوبين، تطيش الطلقات في الهواء تدبين على الأرض غيظًا وتختنق بالدموع عيناك.

يمسك " سعيد البندقية، يصيب أحد المفرقعـات، يقفـز فرحا طالبا العروسة بدلاً من الدب ليهديها إليك يا "مريم".

تبتسمين، وتتحفزين للفوز، تمسكين البندقية في ثبـات وثقة تصوبين، فتفوزين وتهدين الدب إلى " سعيد ".

تواصلان السير، تناديان على بائع البخت، تبتاعان منه قطع الحلوى المغلفة بورق سوليفان.

تجريان إلى ركن الرصيف، تضعان الدب والعروسـة جانبا تفضان الورق.

تظهر بضعة كلمات بحروف صغيرة دقيقة في بخـت "سعيد"، ويقرأ:"حبك نار "

يضحك.

وتفضين بختك يا " مريم "، فيظهـر: " أنـا والعـذاب وهواك " تضحكان، تأكلان الحلوى وتحتفظان ببختيكمـا فـي جيوبكما.

توقفت عن التقلب في الفراش يا " مريم ".

قمت، متوجهة إلى الحمام، خلعت ثيابك قطعة، قطعـة وضعت جسدك تحت الدش.

تخللتِ قطرات الماء مسامكِ الفائرة، وأخذكِ الحنين إلى "عبد الحليم ".

" صافيني مرة

وجافيني مرة..

ولا تنسانيش كده بالمرة

صافيني مرة و..."

استرخيت قليلاً بعد الحمام يا " مريم"، فردت ظهـرك على الفراش، لتنعمي بضعة لحظات من السكينة.

ناداكِ من قلب الميدان.

استدرتِ، لتجدي أمامك شابا جمـيلاً، أسـمر، طويـل القامة عيناه عسليتان نافذتان، لامعتان.

صحتِ من فرط دهشتك: " سعيد ".

تصافحتما وعبرتما الشارع، متجنبين العربات المسرعة أسرعتما إلى أقرب رصيف.

تشابكت أيديكما، وكأن السنين ما فرقتكما إلا حين أنبـأ أبوكِ ذات مرة العائلة بقرار الانتقال إلى مكان ناء في ضواحي المدينة، بالقرب من عمله الجديد.

في يوم العزال، احتضنت درابزين السلم، وأسند "سعيد" ظهره على الحائط وحين وصلت عربة المنقولات، اختبـأ فـي حوش المنزل، وحيدا وقد اختنقت الدموع في عينيه.

وصلتما حديقة قريبة، جلستما تحت شجرة وارفة.

بادرتِ بالحديث: إنتوا لسة في الحي القديم؟

فرد جسده على النجيلة: حنروح فين؟

رفعتِ رأسك إلى السماء، آخذة نفسا قويا:

- يا اه.. دي الدنيا صغيرة

ابتسم:

- وجميلة زي عينيك.

ضحكتما بملء قلبيكما، بانت الغمازتان في وجنتيك يـا "مريم" قام " سعيد " نافضا العشب عن جسده:

- يا للا بينا

مد يده ليعينك على الوقوف.

سألتيه: على فين العزم؟

- على البيت، أمي حتفرح لما تشوفك

رحبت بالفكرة يا "مريم" ومشيت مزهوة في الشـارع، يدك في يد " سعيد".

آه.. يا " مريم " للمكان رائحة، وللحـي القـديم ألفـة وعشق. إحساس ما بالاغتراب، أصابك وأنـت تقتـربين مـن الشارع خيل إليكِ أنكِ تهتِ، قلتِ:

- أنت متأكد إن دا شارعنا القديم.

- أيوه.

- لكن..؟

لكن يا " مريم " العين تبصر أشياء مختلفة، خلا الشارع من الأشجار الوارفة المتشابكة، المظللة على المكـان، وأقـيم سنتر كبير بأدوار عديدة بدلاً من دكان بقالة ومحل خـردوات وأكثر من برج سكني، مكان بيوت واطئة أزيلات حتى السـينما اختفت وحل محلها كافيتريا سياحي.

آه.. يا " مريم "، القلب لم يزل يحمـل دفء البيـوت العتيقة وظل الأشجار العالية والسـينما والمـراجيح والسـاقية القلابة وصندوق الدنيا ورائحة الورد.

اقتربتما من البيت، بدا عجوزا محنيا واختفت الشجرتان عند مدخله.

السكون يكتنف المدخل، أين صياح الأولاد في حـوش المنزل، وصوت ماكينة الخياطة لأم "راشيل" وزعيق "أم مينـا" الراطن بلهجة أجنبية.

قطع " سعيد " شرودك "

- خلي بالكِ، فيه سلمة مكسورة

اتكأتِ على الدرابزين، محاذرة الدرجة المكسورة.

يا ألله.. لم تزل " أم سعيد " تفتح بابها أمـام القريـب والبعيد كما كانت دوما.

آه.. يا " أم سعيد "، هكذا أنتِ فلاحة ذات قلب حنـون وصلابة في الروح، لا تحب اللوع، وفي الحق لا تعـرف لهـا عزيزا.

ناديتها، كما كانت تحب دوما:

- خالة أم " سعيد "

قامت فور رؤيتك يا "مريم "، فاردة ذراعيها، تضـمك في قوة وحنان.

غالبتها الدموع:

- اتفضلي يا بنتي، يا ألف مرحب، نورتِ البيت.

دارت عيناكِ في المكان.

الحوائط مطلية باللون الأبيض بدلاً من اللون الأصـفر القديم، لكن أين الكنبة في المدخل، حل محلها أنتريـه مـذهب، وصارت الصالة أكثر اتساعا، ربما لإزالة حائط في منتصـفها وتطل صورة كبيرة بشريط أسود على الحائط في صدر الردهة وكانت لأبي " سعيد ".

قلتِ يا " مريم ":

- البقية في حياتك يا خالة، تعيشي وتفتكري

هزت رأسها:

- وحياتك الباقية يا بنتي، هيه.. فات زمن

رددتِ:

- البركة فيكِ يا خالة

طرفت الحاجة بعينها نحو ابنها " سعيد "، قالت:

- البركة فيكِ يا بنتي، وفي " سعيد " و " أحمد ".

سألتها:- إلا بالحق، هو فين أحمد؟

- سافر لخاله في السعودية، يلقط رزقه هناك.

تنهدتِ: - يرجع بالسلامة إن شاء الله

- يسمع منك ربنا

لفت طرحتها السوداء حول وجهها:

- نفسي أفرح بيهم، قبل ما ربنا يفتكرني

- بعد الشر عليكِ يا خالة

ابتسمت:

- الأعمار بيد الله.. إحنا ضيوف على الدنيا

تأملتك " أم سعيد " لمعت عيناها:

- بسم الله، ما شاء الله، بقيت عروسة حلوة يا مـريم، قولي لي أمك فين، وأبوك، وأخواتكِ؟

هززت رأسك يا مريم:

- أمي.. تعيشي أنتِ

تمتمت:- لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنـا إليـه راجعون

أكملت يا " مريم ":

- وأبويا بعافية، وأنا وأختي بنشوف طلباته و...

قاطعتك أم " سعيد":

- وأخوكِ فين؟

- يووه.. دا داخل على عشر سنين في الخلـيج وكل ما ينزل أجازة، يرجع تاني وفي الآخر بطل ينزل.

هزت أم سعيد رأسها:

- أنا عارفة غيتهم إيه في الغربة، المهم، عاملين إيه في مسكنكم البعيد آخر الدنيا؟

- والله يا خاله، الناس هناك أغراب عن بعض الجار ميعرفش جاره، الشوارع نضيفة آه.. لكن فاضية مـن البشـر، أقولك الحق، مش مرتاحة أغلب وقتي بقضيه عند ستي.

رفعت الخالة حاجبيها: إلا بالحق، إزيها، لسـة قويـة وصوتها عالي، وصف أسنانها كامل زي ما هو، الشـهادة لله، هي ست تعرف الأصول، ما من مرة تزور البيت، إلا وتخـبط على كل باب تسأل عن أصحابه.

وقف " سعيد " مستأذنًا:

- عن إذنكم

استدارت أمه بوجهها نحوه:

- على فين؟

رد على عجل:

- حالاً، مش هتأخر

وخرج سريعا من الباب المفتوح.

اتكأت أم سعيد على مسند المقعد، محاولة القيام:

- اعذريني يا بنتي، نسيت أسألك، تشربي حاجة؟

وقفتِ يا مريم، صائحة:

- خليكي مرتاحة يا خالة، أنا عارفة مكان المطبخ.

لمعت عيناكِ، أردفت:

- إيه رأيك في فنجانين قهوة تمام، على شرط تقـ ري لنا الفنجان زي زمان.

ابتسمت الخالة، وقد خلا فمها من أسنانها الأمامية:

- يخيبك يا مريم، إنتِ لسة فاكرة؟

- هيه قلتي إيه؟

هزت رأسها:

- على كيفيك، قهوة سادة

- سادة؟

- السكر يا بنتي، يكفيك شره

- ويشفيك يا خالة

- الشافي هو الله

- ونعمة بالله

درتِ في المطبخ، جمعتِ عدة القهوة والمقادير

دندنت:

جانا الهوى.. جانا

ورمانا الهوى.. رمانا

والرمش الأسمراني

شبكنا بالهوى... "

أوقدتِ الشعلة الصغيرة للبوتاجاز، قلبت البن على نـار هادئة.

كان الصمت يقبع خلف شباك المطـبخ المطـل علـى المنور الذي لم يكن يخلو أبدا من الأصوات، زعيق " أم مينـا" مع أولادها، ماكينة " أم راشيل" وعيال " أم سفير "

ولقد لاحظت، فور دخولك مع " سعيد " إلـى مـدخل البيت قفلاً كبيرا صدئًا على باب " أم راشيل "، وأثناء صعودك السلم، لم تكن " أم مينا " تفتح بابها كعادتهـا، وتجـري خلـف أولادها إلى عتبة البيت وخاصة الولد " مينـا "، الـذي كـان يتزحلق على درابزين السلم أسرع من الريح.

نضج البن، كاشفًا عن وجهه الجميل، جهزت الفنـاجين الصغيرة، صببت القهوة، محاذرة أن تهتـز يـدك، وضـعت الصينية على المائدة أمام " أم سعيد".

انتهيتما من احتساء القهوة، راقبتِ " أم سـعيد"، أثنـاء قلبها للفنجان في الصحن يا " مريم ".

مرت لحظات من الصمت والتوتر والترقب بين قلـب فنجانك وإعادته لوضعه الأول.

اقتربت الخالة من وجهك والفنجان في يدها.

قالت: بصي يا ستي.

اقتربت أنفاسك من أنفاسها، نظـرتِ إلـى الخطـوط المتشابكة المنقوشة داخل الفنجان.

أنصتِ:

- فيه سكك مفتوحة، وسكك مقفولـة، لكـن قـدامك مجرى، وطريقك أخضر إن شاء الله، وجدع أسمر بيمـد لـك إيده، شايفاه؟

وتدققي في النقوش والخطوط المتشابكة يـا " مـريم " لينتقل إليكِ الإيحاء.

أكملت الخالة مشيرة بسبابتها:

- وفيه سرة، مستنياكِ، فرجه قريب، إن شاء الله.

عقدت حاجبيها:

- لكن؟

كتمتِ النفس للحظة، منصتة:

- فيه حفرة في طريقك

شهقت: حفرة!!

أعادت " أم سعيد " الفنجان مكانه، مرددة:

- الحارس الله يا بنتي

نظرتِ إلى فنجان " أم سعيد " المقلوب، قلت

- وإنت يا خالة، مش حتشوفي بختك؟

هزت رأسها:

- بختي عرفته من زمان، ورضيت بقسمتي والحمد لله.

تجولت عيناكِ في المكان، لاحظـت اختفـاء ترابيـزة السفرة العتيقة، ودولاب الفضيات، والشماعة الأبنوسي التي كان " أبو سعيد " يعلق عليها طربوشه وعكازه المطعم بالصدف.

كان " أبو سعيد" على قدر كبير من الوسـامة، رغـم عرج خفيف في إحدى قدميه، نتيجة سقوطه في طفولتـه مـن فوق عفش أخته العروس المحمل على عربة كارو.

أما " أم سعيد "، فكانت في شبابها، قوية البـدن، الكـل يعمل لها ألف حساب، وغيرتها على " أبو سعيد " لم يكن لهـا سقف.

أما التي كانت تغير منها بحق فهي " أم مينا " الأرمنية الشـــــــقراء ذات العيـــــــون الزرقـــــــاء حين تطل أم سعيد من رأس الدرابزين، متابعة نزول زوجهـا صباحا إلى عمله، وتلمح " أم مينا" واقفة علـى عتبـة بيتهـا، بشعرها المحلول، وقميصها الشفاف أبو حمالات رفيعة، يغلـي الدم في عروقها، صائحة:

- يا ولية، استري نفسك، بدل ما أنت واقفة تتعـايقي، وتتقصعي، قدام اللي رايح واللي جاي.

ويمر " أبو سعيد " سريعا، من أمام " أم مينا "، مطرق الرأس تبتلع قدماه درجات السلم، منفلتًا من الموقف برمته.

ويفتح الجيران الأبواب.

وترطن أم مينا:إنتِ زعلان خبيبي، إني خلوة

وتنزل إليها أم سعيد، وقبل أن تشتبك معها، تلحقهـا أم سفير لتقف حائلاً بينهما وتصيح أمكِ من فـوق، وقـد تجمـع الناس:

- صلي على نبيك يا أم مينا، إن كان لك نبـي لمـي نفسك وعيالك واقصري الشر. وبعد أن يهـدأ الحـال وتغلـق الأبواب على أصحابها، تنزل أمكِ السلم، وأنتِ في ذيلهـا يـا مريم.

تطرق باب أم مينا، وما إن تفتح لها، حتى تقـول لهـا أمك في لهجة آمره:

- استري نفسك وتعالي معايا

ولا ترد لها طلبا، وفي ثوان، تقف أم مينا خلف أمـك وقد ارتدت ثيابها كاملة.

تطرق أمك باب أم سعيد، تفتح لها أم سفير، بينمـا أم سعيد جالسة في وسط الردهة.

تدخل أمك وخلفها أم مينا، وتعبرين بجسدك النحيل يـا مريم، من بين الأجساد المكتنزة إلى الداخل.

يسود الصمت.

تقطعه أمكِ:

- اخزي الشيطان يا أم سعيد، حصل خير

وتتمتم أم سعيد:

- اللهم اخزيك يا شيطان

وتجلس النسوة، مترقبات لبعضهن البعض.

تبادر أم سفير بالحديث:

- إيه رأيكم، نقيد الشموع للعدرا

وترد أمك:

- آي والله، دا أنا نادرة، ندر لازم أوفيه

إيه رأيك يا أم سعيد، تحبي تيجي معايا؟

هزت أم سعيد رأسها:

- إن شاء الله

- وأنت يا أم مينا؟

أسرعت أم مينا بالرد:

- طبعا خبيبي، كله بأمر ربنا

تضحك أم سعيد، وتجدها أم مينا فرصة للتقارب:

- وخياة الماما بتاع أنا، أنا بخبك يا أم سعيد

تضع يدها على رأسها، مردفة:

- دماغي، راح خلاص، طار من أبو مينا والأولاد

تضحك النسوة، تقف أم مينا، تهم بتقبيل رأس أم سعيد.

تنتفض أم سعيد، تقف قائلة:

- أستغفر الله

وتتعانقان.

وتجلس النسوة، مسترخيات، وتدخل " أم راشيل" من الباب المفتوح متلفتة:

- خير يا جماعة

تهز "أم سفير " رأسها:

- خير يا ختي، اتفضلي

وتأتي " أم سعيد " بالسبرتاية والكنكة النحاسية، وعدة القهوة، وتنقلب الفناجين بعد ارتشافها.

نظرت في ساعة يدك، تنقلت ببصرك بين الباب والخالة.

أنصتِ لإيقاع خطوات على السلم.

قمتِ متلهفة: سعيد!

جريتِ نحو الباب، خفضت الخالة رأسها ضاحكة.

كان هو بالفعل، حاملاً في يده لفافـة، يتصـاعد منهـا خيوط رفيعة من الدخان.

- يا ساتر

قال، متخطيا عتبة الباب والعرق يتصبب من جبينه.

حملت اللفافة من يده يا مريم، دخلتما مسـرعين إلـى المطبخ لحقت بكما "أم سعيد" التي أصرت على خروجكما منه، وحين قاومتِ، شدكِ " سعيد " من ذراعك إلى الخارج صائحا

- ما تحاوليش، دي أمي وأنا عارفها، ما تحبش حـد يقف معاها في المطبخ.

ربت على كتفكِ:

- وعلى العموم، أنا جايب سمك مشوي مش محتـاج مجهود.

أذعنتِ لرغبته يا "مريم"، وخرجتِ لتقفي و " سـعيد " في الشرفة.

ألقيتِ نظرة خارجها:

- ياه دا الشارع ضاق قوي

هز " سعيد " كتفيه:

- المباني العالية، السبب في الخنقة

ماتِ بجسدك على سور الشرفة، لترقبي نهاية الشـارع

قلتِ:

- فاكر يا " سعيد "، المراجيح وصندوق الدنيا

والبيانولا، وسينما ريالتو، فاكر لما كنـا بـنط السـور ونتزاحم وسط الخلق ونتفرج على عرض مستمر.

ابتسم:

- وأما كنا نروح الكنيسة مع الواد " سـفير " وأختـه "بثينة"، والواد "مينا"، وناكل ملبس الفرح، وعلى فكرة " مينـا " كان عينه من "بثينة ".

- معقولة؟

- أيوه.. كنا ياخدها بعيد في الركن، يوشوشوا بعض، ولما عيني تيجي في عين " بثينة" وشها يحمـر وتـبص فـي الأرض.

ضحكت:

- آه منك، دا أنت طلعت واد سهن

أكمل سعيد:

- ولا فاكرة، العلقة السخنة اللي خدناها لما اتأخرنـا في السيما، كان معانا أخوك وأحلام وسفير

لم يقطع ضحككما غير صوت أم سعيد من الداخل:

- ياللا.. يا حبايبي، الأكل جاهز

تسابقتما، كعهدكما صـغارا، جلسـتما حـول الأكـل متجاورين فصص سعيد سمكة لك، وضعها أمامك.

مددت يدك مبسملة وقد جرى ريقك.

ابتسمت أم سعيد قائلة:

- تعيش وتجيب يا بني

- كله من خيرك يا حاجة

تأملكِ " سعيد " أثناء انهماكك في الأكل.

مازحك: كفاية يا مريم، ارحمي

ردت أم سعيد: ما تسيبها تاكل براحتها يا بني

نظر إليك مبتسما:

- دي مش بتاكل، دي بتزلط

ضحكت " أم سعيد"، وانتفخ وجهكِ غيظًا يا مريم.

انحشرت بقايا سمك في حلقك، سعلت.

ناولك " سعيد " كوب ماء.

وبعد تجرعكِ الماء، رددتِ وقد أدمعت عيناكِ:

- الحمد لله

قالت " أم سعيد":

- كملي أكلك يا بنتي وسيبك منه

رفعت يديك عن الطعام، قائلة:

- الحمد لله يا خالة، أنا أكلت لما شبعت

قال سعيد:

بعد إذنك يا أمي، ننزل أنا ومريم نتمشى شوية.

هزت رأسها:

- براحتكم يا بني، أما أقوم ألحق العصـر وبعـد أن قمتِ بلم الصحون يا مريم، وغسلها، جريتِ تسـبقك فرحتـك خاف " سعيد ".

وفي الشارع، تأبطت ذراعه واتجهتما صوب النهر.

قفز " سعيد" على سور الكورنيش، مد يده إليك ليعينـك على القفز.

جلستما وثالثكما النيل.

أراح ذراعه على كتفك:

- بتعملي إيه اليومين دول؟
- بدور على شغل، وأنت؟
- باشتغل بعقد مؤقت في شركة تصدير واستيراد وفي نفس الوقت باحضر دراسات عليا وناوي أكمل في أمريكا.

رفعتِ حاجبيك دهشة: - أمريكا؟

تأملتِ سمرته وعينيه الدافئتين، قلت:

- وناوي ترجع ولا ...

قطب جبينه، صامتًا.

أدرتِ وجهك عنه:

- على كل حال، دي حياتك وأنت حر فيها.

وبأطراف أصابعه، لا مس ذقنكِ وأدار وجهك نحـ وه، حتى أضحت عينيك في عينيه:

- ثقي أني راجع

أشار بسبابته على الجانب الآخر من النهر، قائلاً:

- بصي هناك، وغمضي عينيكي، واحلمي حتلاقيني في أي وقت تطلبيني، أسرع من الحلم.

تأملتِ الضفة الأخرى من النهر/ الحلم.

رددتِ هامسة: يا ترى.. بكرة مخبي إيه؟

فارقك النوم يا مريم قمتِ، درتِ في أنحاء الغرفة، أغلقتِ صندوق الجدة جلستِ على حافة السرير تتساءلين:

" متى انطفأت ومضة روحكِ يا مريم؟ "

دوت صرخات، أعقبها عويل وجلبة ونوافذ تفتح وأبواب تصطك.

جاءكِ الصوت من المقهى المواجه للبيت وقد كان يسمى قديما مقهى "ماري".

و" ماري " زوجة لعم إبراهيم حمامة، ذلك الرجل الأسمر الوسيم الذي كان يهوى ركوب البحر منذ صغره وفي إحدى رحلاته إلى اليونان، وقع في هوى فتاة جميلة تزوجها وأتى بها إلى بلاده آملاً في الاستقرار.

فتح مقهى، جعله ملتقى لأهل الحي، ومن فرط حبه لزوجته، سمى المقهى باسمها "ماري " وكان مزهوا بحلاوتها

ونظافتها ويصفها بأنها بضة، ذات قوام ممشوق وشعر أحمـر مموج وعينين بنفسجيتين.

وكان "حمامة يتباهى بأنه يغش الخمر للخواجات أيـام الإنجليز يضع مقدارا كبيرا من السبرتو الأحمر، فوقه مقدار من الريحة الرخيصة ويرجهما بقوة، مدعيا أنه أتى بمشروب مـن الخمر المعتق، ليس لها مثيل في بلاد الشرق والغرب.

وكان "حمامة"، يخبئ التلاميذ الفارين مـن رصـاص الإنجليز في المظاهرات، يفتح لهـم البـاب الخلفـي للمقهـى الموصل لبيته، يأويهم حتى يهدأ الطريق ويرحلوا إلـى حـال سبيلهم.

أما "ماري "، فكانت حريصة على نظافة المقهى، ولديها جهاز ": جرامفون " تدير الموسيقا اليوناني وترددها أثناء تلبية طلبات الزبائن.

وكانت تهوى جمع العملات القديمة وطوابـع البريـد للبلاد التي زارتهـا وصـور تذكاريـة لطفولتهـا وصـباها، ولرحلاتها مع "حمامة" على ظهر المراكب من مكان إلى مكان، وتحتفظ بتلك الأشياء الصغيرة في صندوق مطعم بالصدف، له

مفتاح في حجم عقلة الإصبع، تضعه تحت ملابسها المرصوصة بعناية في دولابها العتيق.

و في كل مساء، يفتح " حمامة " المذياع على صوت "أم كلثوم " الذي ظل يعشقه حتى الممات.

كان أغلب الزبائن يحبون "ماري" لبشاشـتها وحسـن استقبالها وفوق ذلك حبها الشديد لمصر .

وكانت ماري بدورها، تكره الاحتلال، فـي أي مكـان على وجه الأرض، وتساعد زوجها في إعداد الخمر المغشوشة لجنود الإنجليز، بل وتساهم معه، في إيواء الطلاب الفارين من المظاهرات، الذين لا مأوى لهم، وتضع مـن عنـدها، سـعرا مخفضا للمشروبات وتحرص على إيقاد الشموع للعذراء راجية من ربها أن يمنحها الولد، إذ إنها مكثت سنوات طويلة لا تنجب حتى استجاب لها خالقها وأهداها ابنًا.

وكانت " ماري "، تصوم وتزكي مع "حمامة"، وتتبـرع للجامع بالمال والكسوة مثلما تفعل مع الكنيسة لا فرق لديها، فقد كانت شديدة الحنو على فقراء الحي وحين توفيت، حزن عليهـا أهل الحي حزنًا شديدا.

وتأثر " حمامة " تأثرا بالغًا بموتها، إذ كان يذوب فيهـا عشقًا ولم يكن خلافه معها إلا على تدليل ولدهما " سيد " وكان دائم التحذير لها أنها سوف تفسده بعد اكتشافه أنها تعطـي لـه نقودا من خلف ظهره وتجلب له كل شيء يرغبه دون حساب.

ولم يمكث " حمامة " زمنًا طويلاً بعد موتها، إذ فاجأته المنية أثناء سهرة ذات ليلة مستمعا للست.

وقد دفنت " ماري " بناء على وصيتها في مصر، ولحق بها " حمامة" وكأنهما متعاهدان على المضي سويا فـي الـدنيا والآخرة.

فرقعة قوية دوت في الحارة، أدركتِ يا " مريم " أنهـا طلقة رصاص.

سكت العويل، وهدأ الصراخ وكفت الغمغمة.

ها هو البوكس، يتدافع خارجه جنود الشـرطة، يقـتحم الضابط المقهى وخلفه عساكره، يقلبون المناضد والنـرجيلات، ويضربون المساطيل على قفاهم، ويركلونهم خـارج المقهـى، ليكوموهم في البوكس وعلى رأسـهم " سـيد " ابـن حمامـة والوريث الوحيد للمقهى.

ويكسر الجنود باب المخبأ، يحرزون أكيـاس البـانجو والصنف المعد للتوزيع، وحقن "المـاكس" والبرشـام ويتـرك الجنود المقهى حطاما، ويأمر الضابط عساكره بالبحـث عـن "النمس والهن".

و " النمس "، رجل ضئيل الحجم، مشهور بالزوغـان والقفز على أسطح البيوت، تميزه " بشلة " على خده الأيسـر، وعيناه مثل الثعلب، يشتم رائحة الخطر أينما كـان، ويسـرع بالفرار في الحال.

أما "الهن"، فهو ضخم الجثة، أسمر عينـاه ثاقبتـان، لا يخطو خطوة إلا و "قرن الغزال " معلقة في حزامـه، يتحاشـاه الكبير قبل الصغير، ويقوم بتقطيع " الصنف " في عز الظهـر في زقاق خلف المقهى، ويجتمع "النمس " و " الهن " و " سيد "، آخر الليل على رصيف المقهى يتبادلون النرجيلة المغموسـة، ويتندرون ويعاكسون الرائح والآتـي، وتنقلـب الأمـور إلـى مشاجرة في نهاية الأمر.

وكانوا على علاقة وثيقة بمخبري الحـي، ويرشـقون "الناضورجية " على النواصي.

وفي أيام الكساد، حين تضيق الحكومة الخناق على المكان، يغشون في الصنف، ويخلطون البانجو بالأعشاب الرخيصة أو أوراق الملوخية المخروطة.

ويركب " النمس " عجلته، ليلف بها على تجمعات الشباب والناس التي ألقاها زمنها في زوايا الحواري والأزقة.

ويظل " سيد " في مخبأ المقهى، يعبئ بمعاونة " الهن " أكياس البانجو المغشوش، ذلك المخبأ الذي كان مأوى للتلاميذ الفارين من رصاص الإنجليز.

وأنت.. لا تزالين خلف الشباك، تراقبين وتتابعين يا "مريم " لمحت المخبر " ثروت " بجسده البدين المترهل وقدميه الغليظتين وعينيه الجاحظتين، واقفًا في طرف المقهى بعد رحيل البوكس وبجواره عجلته الصدئة، مركونة على جدار أحد البيوت القديمة الواطئة.

ولا تدرين يا مريم، لماذا لا يكف المخبر "ثروت " عن مراقبتك حتى الآن، شاب شعرك، ورميت العالم خلف ظهرك ولم يزل واضعا إياك في دماغه رغم تورم ساقيه وضعف بصره.

ذات مرة.. جعلته يلف خلفك البلدة كلها، مـن سـوق الخضار إلى سوق السمك إلى موقف الأتوبيسات، والممـرات والأزقة والحواري والأحياء الراقية، حتى محطة القطار، آخـر المطاف.

وكلما تنصتين إلى لهاثـه، وأزيـز عجلتـه المميـز، تسرعين الخطى، إلى أن تتحشرج أنفاسه ويقف أمامك بعجلتـه الصدئة متوسلاً:

- يا ست " مريم "، كفاية، الله لا يسيئك دوختيني.

تحدقين فيه صائحة:

- ما هو إنت اللي غاوي لف

وبصوت منهك يرد:

- يا ستي أنا عبد المأمور، لازم أسلم التقرير وإلا..

تدفعينه بيدك:

- بلا تقارير، بلا كلام فارغ، هو أنـت ولا مؤاخـذة فقدت التمييز ولا هو عاد حاجة تلف وراهـا ويجـر عجلتـه مغمغما، جارا خيبته خلفه بخطوات ثقيلة تابعته محاولة التذكر، آخر مرة، كنت هاربة ومطاردة فيها يا "مريم".

خرجت، ذات مرة، في مظاهرة تطالب بوقف الغـلاء وتصدت لها قوات الأمن.

وكان المطلوب الفرار، والاختباء فترة من الوقت، عن أعين أجهزة الأمن، ولأن الأمر تم سريعا، كانت الخيبة أسرع.

بحثت يا "مريم"، ومعك عدد من زميلات الدراسة عـن عدة أماكن تصلح للانزواء.

وجدتن بعد مشقة، مكانًا في آخر شارع الهرم، شقة في دور أرضي، ثلاث حجرات وصالة، حجرتان مفتوحتان علـى بعضهما، والثالثة مغلقة، ومعلق على بابها قفل ولا تنسـي يـا مريم، ولن تنسي، شكل صاحبة المكان " الست زيزي " امـرأة في نهاية الأربعينيات شعرها مصبوغ بلون أحمر فج أما وجهها فملطخ بمساحيق شتى، قوامها ممتلئ وعيناها قطيطة والملفـت للنظر، كمية الذهب التي تحملهـا فـوق ذراعيهـا وصـدرها وتجلجل بها أثناء مشيها.

كنتن أربع فتيات متفقات على التنكر.

" ليلى" و "صابرة" و "زهرة" و" أنت يا "مريم".

في يوم.. تخرج البنت "ليلى" محجبة، وكانـت طويلـة بيضاء منمشة الوجه، وفي يوم آخر.. تخرج بباروكة شـقراء فوق رأسها.

أما " صابرة "، فكانت سمراء، ضـئيلة الجسـد، ذات أكتاف عالية تخرج مرة بجلابية وطرحة ومرة بباروكة وأخرى ببنطلون جينز وبلوزة قصيرة.

وكنت يا "مريم " تضعين الباروكة أحيانًا فوق رأسـك، وأحيانًا الطرحة.

وعلى أية حال، كانت البروكة تلف على الجميع.

أما "زهرة"، فكانت الوسيط بين المكان والخارج تخرج في أول الليل، ولا تعود إلا الفجر، وأحيانًا تبيت فـي الخـارج وكانت فتاة مائلة إلى النحافة، شعرها قصير، وعيناها دائرتين.

وأضحيتن مع الوقت فرجة الحي، وكما يقول المثل:

" اللي ما يشتري يتفرج ".

وفي ذات ليلة.. حضرت صـاحبة البيـت " زيـزي"، أساورها تزن أرطالاً على ذراعيها والكردان أبو دورين يتخلل فوق صدرها المكتنز.

حضرت، ساحبة في يدها، رجلاً في بداية العقد الرابع أسمر، طويلاً، داهنًا شعره فازلين، يرتدي بدلة مخططة وفـي يده حقيبة كبيرة.

والملفت للنظر، أن حواجبه رفيعـة، كالفتاـة وعينـه مكحلتان ويمشي متهاديا والست " زيزي " ترغب في تسـكينه في الحجرة الثالثة، ومع من، مع فتيات وقطعا، لم يمر الأمـر بالساهل، رفضتن في البداية، ثم تصاعد الرفض إلى سب وقذف مع الست " زيزي "، واكتفى الرجل الواقف في الركن بالفرجة، وكاد الأمر أن يصل إلى اشتباك بالأيدي لولا أن خرجت الست "زيزي " من البيت وفي يدها الرجل الغريب، متوعدة بتأديبكن.

وفي صباح اليوم التالي، قمتن من نومكن، مفزوعـات، نتيجة طرق عنيف على الباب، في البداية، درتن حول أنفسكن، لكن سرعان ما توقفتن ملتفات إلى بعضكن، وفي حوار صامت بين العيون في تلك الأحوال، بادرت ليلى بفتح سحارة الكنبـة القديمة تحت شباك الصالة وساعدتها صابرة في جمع الملابس المخزنة وإلقائها على البلاط، وفي سرعة مذهلة رفعت صندوق خشبي يحتوي على بقايا منشورات لم تـوزع بعـد، تناولـت

وزهرة الأوراق منهما، وفي قاعدة الحمام، ألقيتموها وأخفت كل واحدة منكن بطاقتها وكارنيه الجامعة في قطعة مـن ملابسـها التي ارتدتها سريعا.

وفي الوقت الذي انهمر فيه ماء السيفون، كان أمـين الشرطة قد دفع الباب مقتحما المكان وخلفـه السـت "زيـزي" واثنان من الجنود.

كان المتوقع أن يكون جهاز أمن الدولة قد توصل إلـى مكانكن لكن المفاجأة، أن الست زيـزي، اتهمـتكن بالسـرقة، وبالطبع أنكرتن وفي دقائق، تم تفتيش البيت تفتيشًا دقيقًا، أسفر عن وجود كردان خلف مسند كرسـي أسـيوطي، وأسـورتين ذهبيتين بين الملابس في الدولاب.

وانتبهتن بعد فوات الأوان، أن اللعينة "زيـزي " كـان معها نسخة من المفتاح ورتبت الكمين أثناء نومكن.

كان " البوكس " راكنًا على رأس الطريـق العمـومي ولكي تصلن إليه، لابد من قطع طريق طويل ضيق.

ومشيتن، الواحدة خلف الأخرى والناس على الصـفين تتفرج على الزفة.

ارتميتن في الحجز صرختن بلا جدوى.

حاولتن استعادة هدوئكن واتفقتن على إظهار هـويتكن والقول أنكن طالبات مغتربات تسكن في شقة مفروشـة وشـاء حظكن السيئ أن أوقعكن عند الست " زيـزي " وحـين طـال حجزكن، عاودتن الصراخ والـدبيب، وصـل مـلازم علـى صياحكن، زعق فيكن ولكن أمـام تصـميمكن علـى مقابلـة المأمور، أذعن للأمر.

وبالفعل، وقفتن متراصات أمام المأمور، الذي تـأملكن واحدة.. واحدة.. ولسان حاله يقول:

- " ما الذي لم الشقراء على المحجبة؟ "

وبسرعة أظهرتن كارنيهات الجامعة ووضعتهن علـى مكتبه.

تأمل في الكارنيهات وتنقـل ببصـره بـين الصـور ووجوهكن قام من مكانه، مر أمامكن، قائلاً:

- ولما أنت وهي بنات ناس، مش عيب تمدوا إيـديكم علموكم كده في الكليات؟

بادرت " صابرة " بالكلام:

- إحنا كنا بندور على شقة مفروشة نقسم أجرتها سوا، دلنا سمسار على الست " زيزي " و..

قاطعها المأمور:

- بتقولي مين؟ " زيزي " ..

أكملت " زهـرة ":

- وحضرتك عارف أن الغريب أعمى ولو كان بصير

ولحقتها " ليلى ":

- وبعدين، يا سيادة المأمور، الشكوى دي كيدية، لأنها جابت لنا راجل زي الشحط يسكن معانا بالعافيـة وحضـرتك شايف إن كلنا بنات.

وقلت يا مريم: وحضرتك يعني، شايف إن شـكلنا ولا مؤاخذة مش بتاع الكلام ده.

واندفعت " صابرة " في البكاء:

- ربنا على المفتري

واختنق صوت " زهرة ":

- دي ست قادرة، ربنا يكفينا شرها و ..

قاطعكن المأمور:

- بس، هس، أنتِ وهي، أنا مش ناقصكم على الصبح.

أطبق الصمت عليكن.

ضغط المأمور على زر فوق مكتبه، حضر جندي على الفور مؤديا تحية التمام.

- شوف لي الضابط " فوزي " قوام استدار الجنـدي، بعد تأدية التمام وهرع خارج المكتب وما هي إلا لحظات وكان الضابط " فوزي " أمام المأمور متنقلاً ببصره بينه وبينكن.

صاح المأمور، مشيرا بيده إلى التليفون:

- اطلب لي المدعوقة " زيزي "

قلب الضابط في دفتر على المكتب وبسـرعة البـرق كانت " زيزي " على الخط

أمسك المأمور يد الهاتف، تراجع بظهر مقعده صائحا:

- جرى إيه يا " مرة"، إحنا ما ورناش شغلانة غيرك

- ....

- بتقولي إيه؟ سرقة، على ماما، يا روح أمك

- ....

- يعني تلمي الدور وتتنازلي عن المحضـر، وإلا .. حقاب عليكِ وعلى اللي خلفوكي..

- ....

- خلاص، انتهى، مش عاوز قلبة دماغ.

أغلق السماعة حانقًا، جمع الكارنيهات في يده، أعطاها للضابط، موجها كلامه إليكن:

- تاني مرة، ابقوا، خلوا بالكم ومش عـاوز أشـوف وشكم هنا تاني.

وزع الضابط الكارنيهات عليكن، واحدة.. واحدة وبعد أن انتهت الإجراءات، وضعتن " ذيلكن في أسـنانكن وطـرتن خارج المكان".

سارينة عربة الإسعاف تخترق المكان.

مددتِ رقبتك خارج النافذة يا " مريم ".

رجال الإسعاف يرفعون رجلاً، أحشاؤه مدلاة خـارج بطنه، وآخر طيرت السنجة ذراعه، أما بقية الإصابات، فكانت إما "بشل" في الوجه أو كدمات متفرقة في الأجساد.

أغلقتِ النافذة وتكومتِ داخل مقعد قريب منها، مقاومة الغثيان.

وخزك ألم في عمودك الفقري، مشيت متثاقلة، مسـتندة على الحائط، وفي لحظة وقعت بثقلك لتستوي بالأرض.

من بإمكانه مساعدتك على النهوض يا مريم؟

حمل صاحبك عشقه فوق ظهره ومضى صوب الـبلاد البعيدة، ترى هل سيعود؟ أم طاب له المقام في أمريكا؟

آه.. يا مريم، أتكون تلك نهايتك؟ أن تسقطي ذات مـرة ولا تقوي على القيام، قاومت مرارا الذهاب إلى طبيب، أيكـون ذلك ما يسمونه بفقدان الرغبة في الحياة؟

حاولتِ القيام مستندة على أيادي المقاعد، وصلتِ إلـى غرفة النوم، اقتسم الأرق فراشك، ابتلعت حبة مهدئة ورحتِ في إغفاءة قصيرة.

" ها أنت تصعدين السلم، مكتوفة الأيدي، تلـوح لـكِ مقصلة من بعيد، تدور حولها وجوه معدنية، قبيحة، تزعق كما الغربان:

- فلنلطخها بالأتربة

- فلنرمها بالأوساخ
- فلنحطمها وننثر أشلاءها

وقالوا.. وقالوا..

وها أنت، تختبئين في زمن غير زمنك وتتـوقين لمـن يلملم شظاياكِ.

تنحبس روحك في دائرة مـن المراهنـات الخاسـرة، تنساقين إلى أخطاء والأخطاء تقودكِ إلـى حماقـات وتحيلـكِ الخسارة إلى مسخ.

المقصلة تتضخم، تتنمر، تقتربين، تزحف نحوكِ.

تتوقفين عن الصعود، ترجعين بظهركِ، تسقطين علـى الدرج، والدائرة تضيق وتضيق.

أفقتِ من إغمائكِ يا مريم، تحسستِ رقبتكِ، حمدتِ الله أنها لم تزل في مكانها.

أضأتِ الحجرة، كل شيء في مكانه، صـندوق الجـدة والسرير النحاسي والكليم والدولاب العتيق.

استعذت بالله من الشيطان الرجيم، وحاولتِ النوم مـن جديد.

أتاكِ مواء قطة، صحتِ:

- أف.. ما الذي أيقظ تلك القطة حتى الآن؟

وضعتِ الوسادة فوق رأسكِ والقطة مستمرة في النداء:

- داود

كان الليل شتاء، ووشيش الوابور يتداخل مع مواء قطة خارج الباب، وخالتكِ مستمرة في تقليب الزبد بعصـا خشـبية طويلة، تتوهج النار، ويزرق اللهب.

وتلتفين وأخوتكِ حول النار مادين أيـاديكم الصـغيرة، مستدفئين بالحكايات.

وكانت حدوتة الليلة عن النبي "سليمان " الذي يحـدث الطير والحيوان والهوام.

وتروي الخالة، كيف أن البحر هاج واسـودت الريـاح حزنًا على فراق " سليمان "

وكيف أن الطيور والحيوانات قد فقدت النطق بعد موته إلا القطط التي سكنتها الجان، وظلت تنادي " داود " في لهفـة وشوق.

وسألت دهشة يا مريم:

- وليه يا خالة، لا تنادي القطط على " سليمان "؟

لسعت يدكِ بعصا التقليب، قائلة:

- والله .. القطط حرة في ندائها، مالي أنا، إذا نـادت على سليمان أو داود، كلهم أنبياء.

خفضتِ رأسكِ يا مريم، مذعنة لكلام الخالة التي انتقلت إلى حكاية جديدة.

وها أنتِ تضغطين على الوسادة، وتظلين تضغطين، لا الهواء يرحل أو النوم يأتيكِ.

قمتِ متثاقلة.. وقد قرصكِ الجوع، توجهتِ إلى المطبخ، فتحتِ الثلاجة، لم يكن بها غير قطعة جبن وبقايا سـمك مـن طعام الأمس.

أوقدت الفرن، دفعتِ السمك داخله وانشغلتِ في تقطيـع الثوم، بحثت عن الكمون لم تجديه.

هفتكِ نفسكِ إلى مخلل، نظرتِ إلى البرطمانات الفارغة إلا من التراب يا مريم.

كانت الجدة حريصة على رص برطمانـات الكمـون والفلفل والشطة والحلبة والنعناع والقرفة واليانسون.

وحين ينقصها شيء، تبعث بكِ إلى دكان عم " جرجس" العطار لإحضاره.

وكان عم جرجس، رجلاً مسالما، لا يتحدث إلا قليلاً، ويحرص على ترضية الصغير قبل الكبير في الحارة، وكان مشهورا، بصنع تحويجة من الأعشاب الشافية للأمراض.

وكنت تلعبين مع ابنته "سونيا " و "كوثر"، بنت عم "فرج" البقال.

وفي يوم من الأيام.. وأنتِ متوجهة إلى بيت الجدة، شدتكِ طفلة نحيلة حافية.

من طرف سترتكِ وأشارت بكفها الصغير:

- كلمي

وجرت من أمامكِ، بشعرها الكستنائي المنكوش ووجهها المتسخ.

استدرتِ يا مريم، مكان ما أشارت الطفلة، لمحتِ "كوثر" تلوح لكِ.

وكوثر، الابنة الوحيدة لعم " فـرج " صـاحب دكـان البقالة، وقد كان رجلاً سمح الوجه هادئ الملامح، يلبي طلبات زبائنه في يسر، مبتسما.

ودوما دكانه نظيف ومرتب، ويصبر على الغلبان فـي السداد، ويشارك أهل الحي في السراء والضراء.

كانت جدتكِ تجلس القرفصاء تحت شعاع شريط الشمس الضيق الساقط من الشباك الوحيد المطل على الشارع.

تنصت إلى حديث الجيران وحركة المارة في الطريـق ونداء الباعة والشجار، وصياح الأطفال وصوت الست الصادر من مقهى" ماري". تهز المنخل بين كفيها، فيتطاير قشـر الأرز ليغطي وجه الجدة.

تنادي عليكِ: - بت يا مريم

تتركين كراستكِ وتهرعين إليها:

- نعم يا ستي.

افتحي الدولاب وخدي نص ريال من الكيس.

وتفتحين كيس القماش يا "مريم "، وتنصتين للجدة.

- اجري، هاتي لنا حلاوة وجبنة وتعالي قوام.

وتطيرين خارج الباب يا مريم، ليس فقـط لإحضـار المطلوب وإنما للعب مع كوثر.

كانت كوثر في نفس عمركِ تقريبا، صبية، جميلة شقية، وخفيفة الدم، ينسدل شعرها البني الفاتح على ظهرهـا وتلمـع عيناها السوداوان، كلما أتت سيرة اللعب.

وتجريان، بعيدا عن الدكان، تلعبان الحجلة والاستغماية، وتتسابقان في الشارع الطويل المؤدي إلـى النهـر، تخلعـان حذاءكما وتبتل أقدامكما عند ملامسة الماء.

تستلقيان على النجيلة، تعاودان الركض بين الأشـجار وتبتاعان حمص الشام وغزل البنات وتتقاسمان الفرح.

وكالعادة.. تتأخرين عـن جـدتكِ وتتحملـين التـوبيخ وضياع النصف ريال.

مشيت نحو الدكان، وحين اقتربتِ، وجدتِ "كوثر" واقفة على بابه في انتظاركِ وعلى رأسها إيشارب وبعد أن تعانقتما، صحتِ:

- واحشاني، يا بنت الإيه.

عدلت من وضع الإيشارب على رأسها، قالت:

- أنت أكتر، ويا ترى، عاملة إيه في الدنيا؟

هززتِ رأسكِ يا "مريم":

- الحمد لله

تنهدت كوثر:

- الحمد لله، وسبحان الله، الكريم، الغفور، الرحيم

ناداها أحد الزبائن.

ربتِ على كتفها، يا "مريم":

- فتك بعافية

صاحت:- ما بدري

ابتسمتِ: - أمر عليكِ وقت تاني

أدرتِ ظهرك للدكان، وقد غالبكِ الحنين إلى "سـعيد" و سنوات الطفولة والصبا والحي القديم.

٢- الرحيـل

قابضة على الخطاب في يدك مشيتِ في اتجاه مبنى عتيق يا " مريم ".

سألتِ رجل الأمن الواقف أمام البوابة الحديدية:

- الأستاذ " عزيز أمين" بيشتغل هنا؟

أومأ برأسه إلى داخل المبنى:

- اسألي الاستعلامات

دخلتِ بهوا فخما، تتصدره صورة كبيرة بإطار مذهب لرئيس الجمهورية بالزي العسكري، ونجفة كريستالية ضخمة مدلاة من السقف، وسجاد " شيرازي" يغطي الأرضية والسلالم ويتوسط البهو مصعد كبير.

دخلت المصعد، وإلى الدور الثاني صعدتِ، كما دلوكِ في الاستعلامات، وأمام يافطة معلقة على الحائط " الشئون الثقافية "، دخلت، وتجولتِ بين المكاتب الفارغة، إلا، من واحد، يجلس صاحبه أمامه، فاردا جريدة بين يديه.

ألقيتِ التحية:

- سلام عليكم

أنزل الجريدة عن عينيه، كان في العقد الرابع من عمره شعره كثيف وعيناه ضيقتان و شاربه رفيع.

قال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أية خدمة يا..

- " مريم " ... آنسة " مريم "

خفض الجريدة:

- اتفضلي

جلستِ متسائلة:

- الأستاذ " عزيز " موجود

هز رأسه:

- هو على وصول

وعاد إلى جريدته.

تلفتِ حولك، الحجرة مسـتطيلة، المكاتـب متراصـة والحوائط عالية، يتوسطها خريطة نحاسية توضح معالم البلد.

وصل اثنان من الرجال، القيا التحية:

- السلام عليكم

رددتِ والرجل معا:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

طوى الرجل جريدته، وقف مستأذنًا:

- بعد إذنك يا آنسة

- اتفضل

نقرتِ بأصابعكِ على حافة المكتب، وعيناكِ على بـاب الدخول.

في ممر متفرع من شارع بوسط البلـد، يقـع مقهـى "المزاج"، وكان ملتقى لأنواع عدة من البشر، طلاب ومثقفـين وسياسيين وفنانين و مواطنين عاديين.

تتراص مقاعد المقهى داخله وعلى الرصيف وفي الممر الواقع بين عمارتين.

جلستم وكنتم ثلاثة، بين حلقات الدخان ورنين الزهر.

وكان مالك المقهى، صاحب مزاج، يشد نرجيلتـه فـي استمتاع، زافرا أنفاسا قوية متتابعة، إلى أن تبرق عيناه ويسعل ويلتف حوله الزبائن، يتسامرون ويضحكون.

كان ضخما، ذا شفاه غليظة وشعر أجعد، يرتدي جلبابا فضفاضا، أما بشرته فسمراء وأسنانه بارزة.

وحين مات، حرص أبناؤه وأحفاده أن يظـل المقهـى ملتقى لكافة أنواع الناس كما كان، ويظل اسمه "المزاج".

- تحت أمركم يا أساتذة

قال عم "مستكة"، أقدم عامل في المكان، بوجهه الطويل المسحوب، وعينيه السوداوين وشاربه الكث وشـعره الأبـيض وجلبابه النظيف وفوطته المطوية بعناية على ذراعه، والمريلـة التي يرتديها دوما فوق ملابسه أثناء عمله ويحتفظ فـي جيبهـا بدفتر صغير يسجل فيه المشاريب بالأجل.

قال شهاب: ما أنت عارف طلباتنا يا عم مستكة.

استدار النادل، صائحا:

- اتنين شاي كشري وقهوة مضبوط ومعسل ووضبه

وصوت في المذياع يصدح:

" شيخ البلد، خلف ولد، يا فرحته

باله انشرح عامل فرح ..... "

واصلتم ثلاثتكم الحوار.

قال شهاب: خلصتي الأوراق؟

رددت يا مريم: واستلمت الباسبور

وقال ثالثكما واسمه أحمد:

- والله.. أنا مش شايف ضرورة لسفرك يا مريم.

وأحمد شاعر فصحى، ضئيل الحجم، قمحي اللون، أما "شهاب"، فشاعر عامية، طويل القامة، نحيف، يضع نظارة طبية سميكة على عينيه وأنفه طويل بشكل ملحوظ وكـان "شـهاب" يهوى مشاكسة " أحمد " وخاصة حين يشتمل حوارهمـا علـى حديث، عن شعر العامية والفصحى.

قال " شهاب ":

- ومن إمتى سيادتك بتفهم فـي الضـرورة دا انـت بتكتب في وادي والناس في وادي.

رد " أحمد " مغتاظًا"

- وهو أنت فاكر أنك الوحيد اللي بـتفهم ولا شـعر العامية بتاعك دا، بتسميه شعر.

عد على أصابعه، مردفًا:

- شوف يا سيدي، عندك " أحمد شوقي " و "المعري " و " صلاح عبد الصبور " و " إبراهيم ناجي " و " امرؤ القيس " و " أبو فراس الحمداني " و....

قاطعه " شهاب ":

- كفاية، أنت حتخطب، خلاص يا سيدي حقك علي.

قالتِ يا مريم:

- والله .. يا إخوانا، أنا مسافرة على قص عيني لكـن أعمل إيه؟ مش معقول أفضل عاطلة ومفيش فرصة للعمـل ولا للاستقرار، تعبت.

علت الدهشة وجه أحمد:

- عاطلة .. من إمتى؟

رد " شهاب " مغتاظًا:

- يا عم، أنت مش عايش في البلد، أنـت ناسـي أن الناس جريت في الشوارع زي الطوفان لما الحكومـة رفعـت سعر الرغيف.

فرك أحمد شعر رأسه:

- أفتكر أن الكلام ده كان من تلات سـنين أو أكثـر، وكنت أنا وقتها بره مصر، باحضر الدكتوراه في المجر.

هز " شهاب " رأسه:

- أيوه.. أيوه.. افتكرت

تسللت نظرة حانية من "شهاب " إلى عينيك يا مريم.

قال:

- أحوالك إيه مع سعيد؟

هززتِ رأسكِ:

- يعني..

- يعني إيه؟

رفعتِ كتفيك:

- يعني..

عقد " شهاب " حاجبيه:

- إنتِ مفيش على لسانك غير كلمة " يعني "، جـ رى لك إيه يا مريم؟

- والله ما أنا عارفة

تنهدتِ في أسى.

صمتِ لحظة، قلت:

- وعلى فكرة " سعيد " سافر أمريكا وانقطعت أخباره من مدة.

حل الصمت على ثلاثتكم.

أحضر عم " مستكة " المشاريب، وضع أمام كل واحـد مشروبه، رص حجارة النرجيلة حتى طقطقـت النـار وشـد "شهاب" نفسا وراء نفس، مطلقًا دخانًا كثيفًا.

احتسيت رشفة من شايك الساخن يا مريم.

قلت: - والله.. أنا بيعز علي فراق البلد، لكن أعمـل إيه؟

لا طايلة باب رزق ولا ضامنة مستقبل.

رد " شهاب " والدخان صاعد من فمه:

- والله عندكِ حق، حد فينا قادر يراهن على بكرة.

دارت أكواب الشاي والقهوة مع دوائر الدخان وتعالـت الصيحات في المقهى مع ارتطام الزهر، بينما الصوت يصـدح في المذياع:

" سلامتها أم حسن

من العين ومن الحسد

سلامتها ... "

سألت " شهاب ":

- كتبت الجواب؟

أخرج من جيب قميصه العلوي ظرفًا، سلمه إليكِ قائلاً:

- أنا وصيته ياخذ باله منك
- أشكرك

هز نرجيلته: أمانة تسلمي عليه وتقولي له يشد حيله.

هززت رأسك: يوصل

قلبت الظرف، تأملتِ الاسم، قرأتِ بصـوت مسـموع "عزيز أمين".

توافد الرجال داخل المكان، اكتظت المكاتب بالبشر وبدأ الكلام المتداخل يتصاعد إلى حد الطنين.

جلبة ما.. أمام الباب، جعلت الناس تتوجه بأبصـارها صوبها.

علقتِ حقيبتك على كتفك يا مريم وسرت فـي اتجـاه الباب.

اثنان يتشاجران.

زعق أحدهما:

- أنا حر يا أخي، وعندي صلاحية أحذف ما أريد من كلمات.

ويرد الآخر:

- لأ .. مش حقك، ولا يجوز لأي شخص، أيا كانـت سلطته حذف حرف مما أكتبه، دون الرجوع لي.

تدخل الناس لفض الاشتباك، شد بعضهم طرفًـا مـن الأطراف المتنازعة ونزلوا به في المصعد، وأدخل الآخـرون الطرف الثاني الحجرة من وأجلسوه أمام مكتبه مهدئين إياه:

- دير بالك على حالك، يا أستاذ " عزيز" والله، مـاكو شيء يستحق.

وانفض الجميع من حوله وعاد كل إلى مكتبه.

اقتربت بهدوء حذر من مكتب " عزيز" يا مريم، وقفت لحظات تتأملينه أثناء ترتيب أوراقه.

حدثتِ نفسك:

- " أيكون هو " عزيز " الذي تقصدينه؟ "

رجل قمحي اللون، متوسط القامة، ذو شعر بني فـاتح، وأنف دقيق وعينان بندقيتان.

حضر الرجل الذي استقبلك فور مجيئك، وما إن رأى عزيز على مكتبه حتى توجه إليه، قائلاً:

- الآنسة، سألت عنك

ثم تحرك إلى مكتبه، مدفسا رأسه بين أوراقه.

رفع عزيز وجهه، نفذت عيناه البندقيتان في عينيكِ يا مريم رمشتِ.

وقف مادا يده، لفت نظرك خاتم بفص أزرق كبير في إصبعه، قال:

- أهلاً وسهلاً.

مددت يدك مصافحة إياه:

- مريم عبد الفتاح

شد على يدك:

- " عزيز أمين " .. اتفضلي

جلستِ على مقعد أمام مكتبه.

قال مبتسما:

- تحت أمرك

أخرجتِ الخطاب من حقيبة يدك، سلمته إياه.

فتحه في فضول، قرأ الكلمات في همس، انتفض فرحا:

- مش معقول، شهاب، الله يخيبك

تراجع بظهر مقعده، فاردا صدره:

- يا سلام، ريحة الحبايب في الورق.

نظرتِ إلى عينيه اللامعتين يا مريم، قلت:

- هو موصيني، أسلم عليك، وأبلغك تشد حيلك

تأملك ممتنًا: أشكرك تشربي حاجة؟

- مفيش داع

طوى الخطاب، وضعه في جيبه، صائحا:

- تحبي نخرج نشم هوا ونتكلم براحتنا

هززت رأسك:

- فكرة، مش بطالة.

استقبلكما الهواء الخريفي فور خروجكما من المبنى مشيتما في شارع طويل مزدحم بالحوانيت المتنوعة والناس والمباني العتيقة والفنادق والمقاهي وأكشاك الجرائد والسيارات.

دخلتما شارعا جانبيا، توجهتما إلـى محـل كشـري، جلستما

أمام مائدة مطلة على الشارع.

كانت تلك أول مرة تلتقين فيها بـ "عزيز" يا مريم.

حدثك "شهاب" ذات مرة عنه أنه من أصل فلسطيني.

وها أنتما في مدينة غريبة، تفصلكما منضـدة خشـبية صغيرة فوقها ملاحات من الفلفل والملح وزجاجتا صلصة ودقة ودورق صاج.

وكأنك في حي السيدة زينب أو باب الشعرية.

قطع "عزيز" شرودك:

- حمدا لله على السلامة

ابتسمت: الله يسلمك

أخرج الخطاب من جيبه، فرده بين يديه:

- يا سلام، مصر وحشتني

- قعدت فيها كتير؟

- اتناشر سنة تقريبا

قرب وجهه منك:

- تعرفي، أنا عاوزك تتكلمي علـى طـول، مشـتاق للهجة المصرية والروح المصرية وخصوصا لما تكون علـى لسان بنت زي العسل.

احمر وجهك، عضضت على شفتيك هامسة:

- دا بس من ذوقك

اقترب النادل منكما وكان شابا تعدى العشرينيات مـن عمره، أسمر اللون، ريفي الملامح.

قال:

- طلباتك يا أستاذ "عزيز"

رفع " عزيز " وجهه نحو الشاب:

- أهلاً يا أحمد، كيف أحوالك

شدتك لهجته يا مريم:

- أنت من مصر؟
- أيوة
- منين؟
- من شبرا
- أجدع ناس، وبقالك هنا كتير؟

- داخل على خمس سنين

تدخل عزيز في الحديث: ويـا تـرى حوشـت مهـر العروسة والشقة

مط شفتيه:

- لسه بدري

مسح يديه في ذيل المريلة التي يرتديها فوق ملابسـه، أخرج من جيبه صورة خطيبته، ناولها لكِ يا مريم

تأملتها، كانت فتاة ذات وجه طفولي وعينين لـوزيتين وابتسامة رائعة، ولا تتجاوز السابعة عشر من عمرها.

قلتِ:

- ربنا يوفقك.

تأمل "عزيز" الصورة، مازحه:

- زي القمر، خسارة فيك

ضحك قائلاً:

- طلباتكم

رد "عزيز":

- اتنين مخصوص

- ماشي

- وما تكترش الشطة

أعاد النادل الصورة إلى مكانها وتحرك صائحا:

- وعندك اتنين مخصوص واتوصى

نظرتِ عبر النافذة يا مريم.

بدأ الزحام يخف في الشارع وأبواق السيارات تهدأ.

قلت لـ "عزيز":

- واضح أنك معروف هنا

- يعني

أحضر نادل آخر الأطباق، رصها سريعا فوق المنضدة وانتقل بشكل آلي إلى المنضدة التي تليها.

رائحة الدقة والشطة والصلصة جرت ريقك يا مريم.

التهمتما الكشري في تلذذ وبعـد أن فرغتمـا، تمطـع "عزيز"

في مقعده تفرس وجهكِ قائلاً:

- تعرفي .. إن عينيك حلوة

ابتسمتِ يا مريم.

أردف:

- وشعرك غجري ولا الغمازتين

ضحكتِ، متحاشية نظراته.

- شوف يا خويـا البنـت حلـوة إزاي، لأ وجمالهـا مصري.

توقفتِ عن الضحك يا مريم.

قلتِ:

- واضح أنك بتبالغ، أو دي طريقتـك فـي مجاملـة الستات، يكون في علمك، أنا من جوايا شرسة.

أشعل سيجارة، قدم إليكِ واحدة، اعتذرتِ متعللة أنك لا تدخنين بعد الأكل مباشرة.

نفخ حلقات دخانه في وجهكِ، صائحا:

- أخبار "شهاب " إيه؟

- عايش، لكن مش بيضحك زي الأول.

- معقولة، دا أحلى ما في "شهاب" ضحكته، ويا ترى، لسه بيكتب شعر؟

- أهي دي الحاجة الوحيدة اللي باقية له

- تعرفي أنه واحد من المقربين لقلبي، يا مـا لفينـا وسهرنا سوا، في الشوارع والحواري، مـن الحسـين للسـيدة لمصر القديمة و القلعة وميدان الأوبرا وشـارع فـؤاد ويامـا دردشنا لوش الفجر، على القهاوي وحضرنا ندوات ومنتـديات، سياسية وثقافية وفنية، واشتركنا في مظاهرات آخرها كان سنة ٦٨ قبل ما أترحل من مصر.

صحتِ دهشة: تترحل؟

اكتسى صوته بالحزن:

- دي حكاية يطول شرحها، نتكلم بعدين.

نظر صامتًا عبر النافذة إلى المباني العتيقة والمارة في الطريق.

رفع النادل الصحون، قاطعا شرود " عزيز ":

- تحبوا الحلو إيه يا أساتذة؟

قال " عزيز":أنا عاوز مهلبية

وصحتِ كالطفلة يا مريم:

- وأنا رز باللبن

استدار النادل.

ابتسم " عزيز ":تعرفي النكتة اللي بتقول:

"سأل واحد أمه: تحبي تتجوزي يا أمـي ولا أجيبلـك مهلبية؟

ردت وقالت له: هو أنا يا بني، عندي أسنان للمهلبية؟"

ضحكت يا مريم، وحين أتى الطلـب، مـلأ " عزيـز" الملعقة حتى آخرها بالأرز باللبن وقربها من فمكِ.

دارت عيناكِ، احمرت وجنتاكِ.

قال " عزيز " في لهجة حانية:

- دوقي.. أنت ناسية أن شهاب موصيني عليك.

وكأنك تعرفينه منذ زمن يا مريم، وكأنه جالس معكِ في مقهى أو بيت في بلدك، هكذا، تسلل شعور الألفة إلى قلبك يـا مريم. أطفأ " عزيز " سيجارته، وأجهز علـى طبـق المهلبيـة أكملت أكل الأرز باللبن، وبعد أن انتهيتما من الطعام أخرجـت مناديل ورقية من حقيبة يدكِ، مسحت فمك ويديك، ناولت عزيز واحدا.

أشعل سيجارة، تراجع بكرسيه للخلف، سألك:

- أنت مقيمة فين؟

- عند ناس قرايبنا، مؤقتًا لحد ما ألاقي شغل
- ولقيتي
- أبدا.. آديني بدور

نفث دخانًا، قائلاً:

- إديني فرصة كام يوم، أسأل وأرد عليك

هززت رأسك: ماشي

صفق " عزيز "، أتى النادل مسرعا، لملم الأطباق.

صائحا:

- بالهنا والشفا

أخرج " عزيز " نقودا من جيبه:

- الحساب

سبقتيه إلى الباب يا مريم، لحق بك، توجهتما إلى موقف الباص تصافحتما، متواعدين على لقاء جديد.

قارب الفجر على البزوغ.

ضاق المكان وضاقت بك الدنيا يا مريم، ولم يعد فـي الإمكان التكيف مع زمنك المفقود بأية حال من الأحوال.

تكورت على الأرض في زاوية الحجرة، محدقـة فـي السقف.

كانت يدك الصغيرة ترتعش في يـد "سـعيد" وأنتمـا تتسللان إلى غرفة النوم.

البيت ساكن، لا حركة أو دبة نملة، الكل ذهـب إلـى جنازة واحد من أهل الحي.

تلقيان حقيبتكما الدراسية، تخلعان حـذائيكما، تنـزلان تحت السرير.

يتقمص "سعيد " دور الأب، ومقطبا الجبين، يقول:

- جهزت الأكل
- أيوه
- العيال ناموا
- طب.. تعالي.. نستريح شوية

تفردين جسدك الصغير علـى الأرض البـاردة تحـت السرير. يتمطع " سعيد " يفك حمالتي البنطلون القصير، يمد يده برفع ذيل مريلة المدرسة تتسال النشوة إلـى جسـدك الفـائر،

يحاول تقبيلك، تتراجعين خجلة يقترب، يلاصـقك، تضـمينه، يضمك تتقلبان، تتصببان عرقًا.

تسمعان وقع أقدام، تكتمان النفس، تشدين ذيل مريلتـك لأسفل يا مريم ويرفع " سعيد " حمالتي بنطلونه.

تتكوران، كلاكما في ركن تحت السرير، إلى أن تبتعـد الأقدام وحين تتأكدان من غيابهما، تخرجان سريعا مـن تحـت السرير، تجريان كفأرين مذعورين، تبتلع أقدامكم درجات السلم فارين من نشوة وليدة وخوف غامض.

درت في أرجاء الدار يا مريم، تتلبسك روح الجدة.

كان البخار يملأ الحمام والجدة تمـلأ الكـوز بالمـاء الساخن وتصبه فوق رأسك تضم جلبابها المبلل بـين فخـذيها، تدعك ظهرك العاري بليفة خشنة وحين تستدير إلى صـدرك، تضمين ذراعيك فوق الترمستين البـارزتين خجلـة، تضـحك الجدة، تمسح جبينها بظهر يدها وتواصل دعك جسدكِ الصغير تصب الماء الدافئ، مدندنة:

- " يا للي على الترعة، حود على المالح "

آه.. يا مريم.. كم تشتاقين إلى لحظة دفء.

ترى.. لم تأخر النهار؟.

تقابلتِ وعزيز على الرصيف المقابل لمبنى عمله.

رفع عزيز وجهه إلى السماء:

- يظهر حاتشتي

الميدان مزدحم بالمارة والسيارات، الباصـات مكتظـة سارينات العربات لا تكف.

الغيوم السوداء تتجمع، السحب المنخفضة تتكاثر.

يعبر الناس الشوارع فـي خفـة وسـرعة، وتلاميـذ المدارس يتقافزون فرحين تحت المطر.

شدك " عزيز " من ذراعك:

- تعالي

أشار إلى تاكسي.

احتوتكما العربة الصغيرة.

انهمر الماء بشدة وبدأ السائق يشـق الزحـام والأرض الموحلة.

ضم " عزيز ياقة سترتك حول رقبتكِ يا مريم، وفهم من نظرتك الدهشة ما تحاولين السؤال عنه.

قال: حنمر على البيت، لحد ما المطر يهدا

- لكن؟
- نتكلم بعدين

وصلتما إلى منطقة سكنية، حديثة البناء، أقل ازدحامـا من وسط المدينة، محاطة بأشـجار ونخيـل وبنايـات عاليـة وشوارع مرصوفة بها بالوعات تشفط المياه، فتجعلهـا أكثـر بريقًا، حتى الرياح الباردة لها رائحة مختلفة عن تلك المحملـة بالأتربة في مناطق أخرى.

أشار " عزيز" لسائق التاكسي، أن يقف أمام بناية على ناصية الشارع.

حدثت نفسك يا مريم:

" أترى، بواطن الأمور مثل ظاهرها؟"

ولم جئت إلى هنا مع "عزيز"، هل هو شعور بالأمان أم فضول.

على كل، هو لم يظهر منه إلا سلوك طيب حتى الآن.

مشيتما مسافة قصيرة، وقفتما عند مدخل البيت.

أشار " عزيز " بيده: اتفضلي

ترددت في الدخول.

عقد حاجبيه: انت مش واثقة مني؟

توقف محدقًا في عينيك، قال:

- لو شاكة لحظة، أني مش بني آدم محترم ارجعي.

شددت على يده.

ابتسم وسبقك في الصعود.

صعدت السلالم متلفتة يا مريم، كان البيت صـامتًا إلا من عواء الريح في السلم.

سبقك " عزيز " إلى أعلى، توقف في الـدور الثالـث، أطل بوجهه من درابزين السلم، صائحا:

- فين الشباب؟

رددت مغتاظة: - أنت ساكن عند ربنا؟

ضحك - لأ .. هو اللي ساكن عندي

استجمعت قواك وصعدت السلالم مسرعة.

كانت الشقة في آخر طابق.

أسندت ظهرك على الحائط، لاهثة.

أدار المفتاح في الباب

انحنى قائلاً:

- تفضلي يا أميرتي.

اصطدمت، فور دخولك يا مـريم، برائحـة مكتومـة وأشياء مبعثرة وأعقاب سجائر ملقاة في كل مكان، وبقايا طعام وكتب وأوراق متناثرة.

رفعت بعض الجرائد من على المقعد، جلست لتلتقطـي أنفاسك.

جرى " عزيز " نحو المطبخ، جاءك صوته من الداخل:

- حالاً.. يكون الشاي جاهز

وبعد أن نلت قسطًا من الراحة، قمـت، تـدورين فـي المكان يا مريم.

مكتبة ضخمة في صدر الردهة، الكتب موزعـة فـي فوضى على الرفوف ومائدة سفرة كلاسيكية، بجوار المكتبـة، عليها مكواة وبعض الملابس.

مقاعد الأنتريه إسفنجية، يتوسطها منضدة دائرية، وفي ركن الأنتريه مسجل فوقه بعض الشرائط.

وفي الجهة المقابلة للمكتبة، بوفيه، فوقه شمعدان نحاسي صغير يحمل شمعتين رفيعتين، وعلى الحائط صـورة قديمـة للعذراء محتضنة " يسوع ".

ممر صغير يصل الردهة بالمطبخ ودورة المياه.

ممر آخر يصلها بحجرة النوم، وباب يفتح السطح.

خرج " عزيز " من المطبخ، حـاملاً صـينية الشـاي، وضعها على المنضدة وكنتِ ما زلت واقفة يا مريم أمام البوفيه شاردة في صورة العذراء.

صاح "عزيز " فرحا:

- الشاي، يا سيدتي الجميلة

ابتسمتِ يا مريم، وجلست لتحتسي الشاي معه.

قلتِ وقد بدأ الدفء يسري في بدنك:

- الله.. تسلم إيديك، شاي يعدل الدماغ

- قال، ممسكًا بالكوب بكلتا يديه:

- دا.. شاي أخضر، أهداه لي صديق من تونس.

نظرت إليه دهشة:

- أنت اك في كل بلد صاحب؟

رد في شجن:

- الناس، هي إلي باقية يا مريم، لا مال أو نفوذ.

هززت رأسك: عند حق.

هدأ المطر.

انتهيتما من احتساء الشاي.

أخذك من يدك قائلاً:

- تعالي.. أفرجك على الدنيا

فتح باب السطح، مشيتما على أرضه المبتلة، متحاشين حبال الغسيل الفارغة إلا من حبات مطر عالقة.

وقفتما أمام السور، فرد "عزيز" ذراعيه، آخـذًا نفسـا قويا.

نشرت عينيك يا " مـريم " صـوب النخيـل الممتـد والأشجار الوارفة المتشابكة، والشوارع المغسولة بماء المطـر والمآذن المتأبطة السماء والطيور التي خرجـت لتوهـا مـن أعشاشها.

خميلة خضراء بين نهرين، تحمل عبق التاريخ المحملة بروائح التمر والبرتقال والصولجان والتاج.

ربت " عزيز " على كتفك، قاطعا شرودك:

- رحتي فين

طار قلبك إلى الأفق البعيد قلت:

- مصر وحشتني

ضم وجهك بين كفيه:

- أول مرة تتغربي

بلعت ريقًا مرا:

- أول مرة

داعب شعركِ مبتسما:

- بكرة تتعودي

حلق آذان المغرب فوق بيوت المدينة.

أحاط كتفك بذراعه:

- ندخل أفضل

جلستما على مقعدين متجاورين.

مرت لحظات صامتة.

انقطع التيار الكهربائي، تكومت في مقعدك.

قام باحثًا عن سبيل للإضاءة، ولأن المكان دليل صاحبه وصل " عزيز " دون تعثر إلى البوفيه، أشعل شمعتين.

مشى بحذر، واضعا الشمعدان على المائدة.

جلس مربتًا على يدك في حنو:

- أنا معاك.. ما تخافيش

اختلست نظرة إلى وجهه في الضوء الخافـت، كانـت ملامحه تجمع بين الحزم والطيبة.

ومن مساحة الضوء المهتز للشمعة، تسللت عيناه نحوك يا مريم.

قال: تعرفي أنك تشبهي أختي

ابتسمت: معقولة؟ اسمها إيه؟

- زهرة .. حتى ابتسامتك لها نفس البهجة

- ممكن تعرفني بيها؟

اكتسى بالأسى صوته:

- آخر مرة شفتها، كان من تلاتين سنة تقريبا.

ألجمت الدهشة لسانك يا " مريم ".

أسند مرفقيه على المائدة، واضعا كفه على جبينه.

أدركت حاجته على البوح:

" كنا تلات أخوات، الدنيا براح قـدامنا نـرمح فـي الغيطان بين أشجار الزيتون والبرتقال، نجري، نضحك، نلعب، نتخانق، نتصالح، نتدحرج على النجيلة نتشعلق فـي أجـراس الكنايس ونسمع الآذان.

كنا نسكن أعلى التل.

لو رفعنا أيدينا نلامس السما ولو مدينا عينينا نحضـن الجبل وكنا شاطرين في صنع طيارات الورق، نلونها ونطيرها وتطير روحنا معاها، فوق، فوق، أعلى من طيارات الجيران.

وكانت أمي شاطرة في خبز الفطاير، نصـحى علـى صوتها وهي بتقلب العجين وحواليها نسوان الحي، وكان جدي له مزاج، يقعد تحت شجرة البرتقال، وكنا تحت تكعيبة العنـب، يجمعنا الشاي والغنا والسهر، كنت أشم ريحـة البرتقـال فـي حضن أمي وعرق أبويا، ودقن جدي.

صمت فجأة.

صوب نظرة متنمرة إلى النار المتراقصة.

نفث بعضا من الدخان المتلاحق يـا مـريم، واصـل كلامه:

- " كان أول مرة أسمع طلقات رصاص في مسـافة قريبة من بيتنا في بيت لحم، بعدها اشتد القصف، مات الضحك، وانحبس الغنا في القلب.

وبدأت النار تزحف على كل شـيء، حتـى أشـجار البرتقال والزيتون وأوراق العنب والبيوت والأزهار، زحفـت حتى جنينة بيتنا، وما رحمتش جدي الممدد تحت الشجرة، واللي أشك أنه مات من الحسرة قبل أن تطوله النار.

وفتش أبويا في البيت كله على بندقية جـدي، وكانـت مصدية وماسورتها طويلة، نضفها بخرقة قديمة وخرج ساحب أخويا الكبير في إيده.

ولما طال الغياب، طلبت مني أمي أبطل بكا، لأنه يعيب الرجال لكني كنت وزهرة أختي، في ركن البيت بالليل، نضـم على بعض ونبكي كانت أمي ترتل الصلوات كل يوم وتسـتنجد بالعدرا ويسوع وتقيد الشموع، ومع ذلك، كنا نسمع كل يوم عن مدابح جديدة.

وفي يوم، اشتد القصف، وأكلت النار النـاس والـزرع والحيطان، طفح الكيل بأمي، لمت بقجة هدومنا بسرعة، شالتها فوق راسها، وبقجة تانية في إيدها، فيها عـيش وزاد للطريـق وكيس قماش صغير خبته في صدرها كان فيه ما شالله، وخاتم أبويا الفضي أبو فص أزرق وصورة العدرا

علقت أمي زهرة على كتفها، ورمحـت بـين النـار والصراخ، وأنا بينها وبين ضلها بجري.

استخبينا في الأحراش، وطلعنا تلال وهبطنا تلال، وفي عربية نص نقل مخلعة، اتكومنا فوق بعض مع النازحين للحدود الأردنية.

خفت وميض الشمعة.

أسرع عزيز نحو البوفية، مفتشًا في أدراجه عن شـمع جديد، لم يحظ إلا بواحدة، أشعلها أحاط النار بإحدى يديه

ثم ثبتها في الشمعدان النحاسي فوق البوفيه.

مرت لحظات ثقيلة من الصمت.

وفي مساحة الضوء الخافت بينك وعزيز كان الحنـين إلى الدار يتراقص مع النار.

وبعد لحظات، غمر الضوء المكان، صحت في عفوية

يا مريم: - هيه!

فرك عزيز عينيه:

- يا ساتر، الضلمة لعنة

وقفت فجأة.

صاح دهشًا: على فين؟

ضممت سترتك على صدرك:

- الوقت بيجري

نظر في ساعته:

- الساعة تسعة، لسة بدري

قام، رفع بكفه وجهك:

- تشربي قهوة؟

هززت رأسك:

- ماشي

اتجه نحو المطبخ، صائحا:

- قهوتك إيه؟

قلت، وأنت تسعين وراءه إلى المطبخ

- مضبوط

اقتربت منه: أسويها بدالك

قلب البن:

- لأ .. ولا مؤاخذة، دي لعبتي

ضحكت، ووقفت بجـواره، تـراقبين وجـه القهـوة المتصاعد على نار هادئة رفع الكنكة بحذر صائحا:

- على فكرة، أنا اتصلت بواحد معرفـة بخصـوص شغلك، قال أنك ممكن تشتغللي مصححة في جريدة مؤقتًا إيـه رأيك؟

وبدون تردد، أجبت:

- موافقة طبعا، ودي عاوزة كلام أطفأ الشعلة، فـتح دولاب الأواني، ساحبا فناجين القهوة خرجتما معا من المطبخ، وضع الصينية على المائدة جلستما

هز الكنكة وصب القهوة بمقدارين متساويين ومـع أول رشفة، قلت:

- الله... قهوة تمام، مين علمك؟

هز رأسه: - الترحال

أخرج علبة سجائره، مد يده بها إليك، سـحبت واحـدة وبعد رشفة من قهوتك، قلت:

- واضح أنك بتدخن من زمان

نفث دخانه فـي وجهـك، دون رد، اهتـز فنجانـك، احتسيتما القهوة في صمت.

ألقى عزيز عقب سيجارته في ركن الردهة، جلس على يد مقعدك، مداعبا شعرك، سرتِ قشعريرة في جسدك.

أطفأت سيجارتك.

رفعت وجهك نحوه.

جسر من الغربة والحنين يصل العينين.

قام متجها إلى المكتبة، قلب في الكتب صائحا:

- بتحبي الشعر؟

صحت من مكانك:

- طبعا

عاد إلى مقعده وفي يده كتاب، جلس متصفحا أوراقه:

- دا ديوان لشاعر عراقي، اسمه " سـعدي يوسـف" تحبي تسمعي؟

- يا ريت

أخذ نفسا قويا وبدأ ينشد:

" نبي يقاسمني شقتي

يسكن الغرفة المستطيلة

وكل صباح يشاركني قهوتي والحليب

وسر الليالي الطويلة.."

لمعت عيناه البندقيتان، ضم صفحات الكتاب، استدار بوجهه نحوك:

- وأنت، فت بلدك ليه؟

فاجأك السؤال، ألقيت نظرة على صورة العذراء.

قلت:

- مفيش شغل

- دورت كفاية

- حفيت، البلد اختلفت عن زمان، أصبحت سوق مولد، وصاحبه غايب

بلعت ريقًا مرا: حتى المشاعر، أصبحت نفعية.

قال:

- أنتِ مرتبطة؟

تحركت في مقعدك، عضضت على شفتيك وبصوت خفيض رددت:

- كان لي صاحب، أبقى كدابـة لـو قلـت لـك أن مشاعري انطفت ناحيته، سافر أمريكا، يدرس، ومرت السنين، كان واعدني يرجع، لكن..

تأمل عينيك الحزينتين، منصتًا لصوتك المخنوق:

- انقطعت أخباره، وأصبحت مشاعري متعلقة بين العودة واللاعودة

اقترب بوجهه منك:

- وحتفضلي منتظراه، لإمتى؟

- مش عارفة

تأملت ملامحه الحادة وعينيه الحانيتين قلت:

- وأنت، الك حبيب غايب؟

ضحك عاليا.

استفزك ضحكه:- أنا قلت نكتة؟

هدأ من ضحكه:- أبدا، أنا في غياب مستمر، غايب عن أهلي وأرضي، غايب حتى عن نفسي، مترحل من بلاد لبلاد زي طير شريد، صعب أستقر.

أشعل سيجارة.

قطع صمتك:

- مفيش داع تقلقي، من الغياب أو الغربة

كل شيء في أوله صعب، لكن التعود

زي ما بيقول " كامي "، له قوته، وسطوته أحيانًا.

تنهدت:

- وقادر تستمر؟

نفث دخانًا في فضاء الحجرة:

- يعني.. حاطط همي في شغلي، أكتب

مقالات في جرايد أو مجلات، أنشر بعضها

والبعض يتصادر، وبقية الوقت أقضيه بين الصـحاب والحزب.

رفعت حاجبيك:

- حزب

- الحزب الديمقراطي الفلسطيني

- معقولة؟ فيه حزب هنا غير حزب الحكومة؟

أطفأ سيجارته:

- لك حق تستغربي، ما هو إحنا فرضناه بصـعوبة، وبعد جهد ووقت.

صحت، دهشة: أنتم؟

- مجموعة مثقفين ولاجئين سياسيين ومـع ذلـك، لا نسلم من المراقبة والتدخل في شئوننا أنت فاهمة، طبعـا، أننـا عايشين في ظل أحكام عسكرية ووجودنا على كف عفريت.

شردت في اللون الأصفر للحوائط، نظرت في ساعتك صحت:

- الكلام معاك ما بيخلص، لكني اتأخرت

وقفت علقت حقيبتك على كتفك.

أراح يده على كتفك: - ما تخافيش حاوصلك

زقزقت العصافير، وأنت لازلت متيقظـة يـا مـريم، تنصتين لماكينة طحن الطعمية ومذياع المقهى:

" يا صباح الخير يا اللي معانا..."

ويصلك طنين التلاميـذ الـذين يسـيرون جماعـات، متوجهين إلى مدارسهم، وأزيز العربة الخشبية الصغيرة التـي يجرها بائع البليلة.

دثرت رأسك بشال جدتك، حملت صحنًا غويطًـا مـن الصاج وخرجت لتندسي وسط جموع الناس والأولاد أمام دكان الفول، لتحظى بكمية مدمس وأقراص طعمية ساخنة.

اندهشت من بعض دكاكين الحارة التي لم تزل مغلقـة وقد كانت تفتح أبوابها من نجمة الصباح منذ زمان مضى.

مررت على الفرن، وقفت في الطابور إلـى أن جـاء دورك وضعت العيش تحت إبطك وصحن الفول المـدخن فـي يدك وعدت إلى الدار.

لم تأتك شهية للطعام.

نظرت على صورة الجدة، رأيتها تبتسم لك، مددت يدك نحوها: اتفضلي

هزت رأسها، ممتنة.

شققت الرغيف، مبسملة وشرعت في الأكل والجدة تقاسمك اللقمة.

نظرت إلى أعلى، وجدت المكان مضاء يا مريم.

كان بيت "عزيز" يسمى "المطار"، إذ كان لا يخلو مـن الناس من مختلف الجنسيات والهويات.

وثبت على السلالم، ضغط على الجرس، فـتح عزيـز الباب مرحبا.

استقبلتك فور دخولك وجوه باسمة.

تولى عزيز التقديم.

أشار إليك:

- " مريم عبد الفتاح "

وإلى كل واحد على حدة، قال:

" علي ": عازف عود وفي السنة النهائية بمعهد السينما.

" سهيلة ": أخت علي.

" مروان": كاتب مسرحي، أصله شامي ويعـيش فـي "جنيف ".

" مازن ": رفيق صبا، ويعيش في الجنوب اللبناني.

" إبراهيم المصري ": فنان تلقائي وصديق من مصر.

" حمدان ": صديق من تونس.

بعد تبادل التحية، جلست على مقعد مواجـه لمقعـدي سهيلة وأخيها.

قال عزيز:- على فكرة، إبراهيم فنان تلقائي جميل.

أشار إلى لوحة معلقة في صدر الردهة:

- دي لوحة من لوحاته

أدار الجميع رؤوسهم نحو اللوحة، وقد كانت لجمجمـة إنسان تحوي داخلها امرأة، تضم رضيعها ويحوطها الحجـارة وأشجار الزيتون.

استدار إبراهيم بوجهه نحو عزيز، قال مبتسما:

- فاكر يا عزيز لما كنا بنلف الحواري، نتفرج علـى البنات القمارة بالملايات اللف والمشربيات والبيـوت القديمـة المعتقة، ونشم روايح البخور والزمن الجميل ونسهر نـدردش ونشيش للصبح في السيدة والحسين.

هز عزيز رأسه مبتسما:

- إلا فاكر وهي دي حاجة تتنسي.

قال إبراهيم بملامحه النوبية وجبهته العريضة:

- فاكر، أول مرة، جربت تشيش، حصلك إيه؟

ضحك عزيز.

وقف إبراهيم، مقلدا صاحبه:

- بعدما شديت أول نفس عينيك برقت ووشك أحمـر زي الجزرة، وقمت فارد صدرك

وقلت: أنا جدع، وهووب.. نزلت زرع بصل

انفجر الجميع بالضحك، أحسست دفئًا بين تلك المجموعة وشغفت لمعرفة حكاياتهم.

مسحت بظهر يدك دمعة منفلتة من الضحك.

قلت: - اللهم اجعله خير

وتساءل مازن:- ما السبب في ترديد المصريين لتلك العبارة؟

وكإنما يستكترون على أنفسهم الفرح

رد إبراهيم:

- لأن المصري، رضع الحزن من بدري، ويا ما ورد عليه غزوات واحتلال وحكام أشكال وألوان، إيشي مملوكي وعثماني وإنجليزي وفرنساوي على روماني، الناس بتضحك من غلبها ياسي "مازن"، ولا أنت ما سمعتش عن المثل اللي بيقول: "شر البلية ما يضحك".

وبقسمات وجهه الحادة وعينيه الصقراوتين، رد "مازن":

- سامعه وخابره والله، الناس في الجنوب بيقضوا أيامهم بين الموت والحياة، كل يوم، ومع ذلك عايشين، بياكلوا

ويشربوا ويضحكوا، وبنات تتزوج وتحمل تخاف أطفال تكبـر وأفراح وسمر وأحزان وصبيان تتعلم كيـف تشـيل السـلاح، وأمهات قويات، صابرات على المحن والحياة مستمرة، رغـم طلقات الرصاص والقصف.

قال "علي" موجها كلامه إلى مازن:

- أيمكنني الحصول على تصريح من الحكومة اللبنانية بالتصوير في الجنوب، بدي أقدم مشروع تخرجي بفـيلم عـن المخيمات و...

قاطعه مازن:

- أنا ما بدي أخيب ظنك يا أخ " علي "، لكن المسألة كتير صعبة وإجراءاتها معقدة.

عقد " علي" حاجبيه:

- كيف هذا.. ما دمت سأتعامل مع أوراق رسمية؟

- يا عزيزي، يوجد هناك العديد من المخيمات

خذ عندك مثلاً: مخيم " إلياس " في بيـروت، ومخـيم "عين الحلوة " في الجنوب " وبرج البراجنة " في جبل لبنـان و

"صابرا " و "شاتيلا " وغيرها وتلك المخيمات خاضعة لسلطات وجمعيات مختلفة.

عد " مازن" على أصابعه مردفًا:

- جمعية أبناء شهداء فلسطين "، و "الهـلال الأحمـر الفلسطيني "، و " منظمـة التحريـر " و " الجبهـة الشـعبية " و"الجبهة الديمقراطية " وغيرها، وفوق ذلـك، توجـد مواقـع عسكرية للمقاومة وبين لحظة وأخرى تنـدلع النيـران ويشـتد القصف ونسيت أن أقول لك أن هناك أيضا كتائـب " أنطـوان لحد" في الجيش اللبناني، وهي أشد فتكًا وخطـرا مـن العـدو الصهيوني المتحالفة معه و...

قاطعه " علي ":

- يكفي وحياة الله، ضاع مشروع التخرج والحمد لله.

ابتسم " مازن ": - لا تيأس، سوف أرفع أمـرك إلـى قادتي ربما بإمكانهم المساعدة، لكني لا أعدك بحدوث شيء في المستقبل القريب.

التقط " عزيز " شرود " علي" وقد كان شابا أسمر، قوي البنية، ذا شعر كثيف وعينين حالكتي السواد.

قال: - ما تسمعنا حاجة على العود يا " علي"

تنقل ببصره بين الحاضرين قائلاً:

- على فكرة، " علي " عازف عود ماهر وأبوه الله يرحمه، كان عواد أصيل.

ونظر إلى أخته، قائلاً:

- والبنوته دي، مشروع كاتبة.

احمر وجه سهيلة، التي لم تتعدى الثامنة عشر من عمرها

ويحمل وجهها القمحي ملامح طفولية.

قالت: - أنت بتبالغ عمو "عزيز "

أمسك " علي" العود، لعب على أوتاره، مدندنًا:

- بدي أسمعكوا، أبيات من قصيدة للشاعر "محمود درويش" من تلحين العبد لله.

هز " حمدان " رأسه: - جميل والله

وصاح إبراهيم:- سمع، هس

شد " علي " أوتار عوده، وبصوت رخيم شدا:

"أحن إلى خبز أمي

وقهوة أمي

ولمسة أمي

وتكبر في الطفولة

يوما على صدر يوم

وأعشق عمري، لأني

إذا مت

أخجل من دمع أمي.."

صفق الجميع، هز "على " رأسه مبتسما وقد لمعت عيناه رفع "مروان" كاسه الممتلئة حتى آخرها، دار حول المقاعد ونظرات القلق تتبعه.

قال: "غدا يظهر الغيب واليوم لي"

حاول "مازن" إيقافه، دفعه "مروان" صائحا:

- اتركني لحالي

كان "مروان" عريض الكتفين، أصلع، ذا شارب كثيف، وفي منتصف الخمسينيات من عمره تقريبا

توجه إلى " علي" راجيا إياه:

- أريدك أن تعزف قصيدة "جبين وغضب"، أرجـوك، غنها لي، أتعرفها؟

هز " علي " رأسه:- أعرفها

رفع " مروان " كأسه صائحا:

- نخب " علي " ... هيه!

أمسك " إبراهيم " بكتف " مروان " أجلسه:

- إهدا يا عم " مروان " ... إهدا

استجاب " علي " لرجاء الكاتب المسرحي " مروان " وشرع في العزف:

" وطني

يا أيها النسر الذي يغمد منقاره في

في عيوني

في اللهب

أين تاريخ العرب؟

كل ما أملكه في حضرة الموت

جبين وغضب..."

توقفت رنات الكئوس، أطرق الجميـع رؤوسـهم فـي صمت.

اقترب إبراهيم المصري من مقعـد " مـروان "، هـز دماغه

مغتاظًا:

- الله يخرب بيتك، مش كفاية الحزن الراقد في قلوبنا، كان لازم القصيدة دي بالذات.

صب " مروان " آخر قطرة من زجاجته في كأسه، رفع ذراعه لأعلى فسالت الخمر على صلعته.

صاح: - أفيقوا يا قوم، وإلا، سوف تساقون كالأغنـام وكما قال الشاعر:"انفجروا أو موتوا ".

وقع الكأس من يده، سقط بين الأقدام، جثا على ركبتيه مختنقًا بالدموع:

- أرجعوني إلى داري، هاتوا أولادي

أصاب الجميع الذهول، سـارع "عزيـز " و "مـازن " وخلفهما إبراهيم، لنجدته، ساعدوه على القيام، وسبقهم " عزيز"

ليفتح باب غرفة النوم ألقوه على الفراش، تقلب بهندامـه علـى السرير، مغمغما:

- داوني بالتي كانت الداء

لم " علي" الزجاج المبعثر، أحضرت " سهيلة " منشـفة جففت الأرض بينما أعاد حمدان ترتيب المكان.

عاد " عزيز " و " مازن " و " إبراهيم "، إلى جلستهم.

لاحظ عزيز شرودك يا مريم، قال:

- هيه.. رحتي فين؟

رددت: - يا ترى حالة الأستاذ " مـروان " تسـتدعي طبيبا

رد إبراهيم:- دلوقت، يفوق زي القرد، ناسي كل حاجة

تنقلت ببصرك بين الحاضرين وغرفة النوم.

قلت:

- لكن دا باين عليه أنه تعبان ومهزوم

وبصوت يملأه الأسى، قال " حمدان ":

- يا عزيزتي، كلنا مهزومون

قال " علي ":

- الضعف مشروع إنساني، لكن لابد من مقاومته

وأعقب " عزيز ":

- معك حق يا " علي "، وعلى كل منا القيام بدوره

وبصوت يفح بالغضب، صاح " حمدان ":

- ومن ذا الذي يتركك تقوم بدورك، أنا مـثلاً مـدير تحرير جريدة، ومع ذلك لا أفيق من كوني مهزوما كـل يـوم الحكومة تدس أنفها في سياسة الجريدة، ناهيـك عـن الرقابـة والتقارير السرية و..

أوقف " عزيز " استرساله: - دوام الحال من المحال يا " حمدان "

إلا بالمناسبة، قدرت توفر وظيفة لـ " مريم "؟

هز " حمدان " رأسـه:- الموجـود حاليـا، وظيفـة مصححة وتقدر تستلم عملها، في أي وقت تشاء

قلت يا " مريم ": - أشكرك على اهتمامك يـا أسـتاذ " حمدان "

- العفو، لكن، اسمحي، لي، ببعض البيانات

اعتدلت في جلستك.

قلت: - " مريم عبد الفتاح " خريجة كلية الآداب، قسـم فلسفة، عام ١٩٧٤، مصرية الجنسية.

ابتسم عزيز:- أنت عيلة

عقدت حاجبيك، مفضلة الصمت

أردف: - تعرفي، أنا عندي كام سنة؟

ظللت على صمتك.

- خمسين سنة

رد إبراهيم - - يا راجل، إحنا من سن بعض

نفخ عزيز:- اتنين وخمسين، استريحت!

ابتسمت يا مريم:- مش باين عليك.

ضحك إبراهيم، ضحكة ماكرة: - إبسط يا عم

سألت " سهيلة " الأستاذ " حمدان ":

- إذا كنت تريد نشر موضوع في الجريدة تبعك ما هي الإجراءات؟

خلع " حمدان " نظارته:- قدميها إلى سكرتارية التحرير على ألا تمس ثلاثة أشياء: السياسة، الدين، الجنس.

ضحكت، ضحكًا هستيريا يا " مريم ".

التفت الجميع نحوك مندهشين.

صحت:- نفس الدايرة

تساءل " مازن ":- شو بتقصدي بالدايرة؟

رددت، وقد ملأ قلبك الشجن.

- نفس المحاذير، السياسة، الجنس، الدين، فايتاها في بلادنا، اللي ضاقت علي وخنقتني أقوم ألاقيها قدامي هنا.

أكملت وقد انتابتك حالة بوح:

" من ساعة ما وصلت هنا، وأنا كل يوم أصحى بدري أدور على شغل، وإذا صادف ولقيت، لازم أوقع على اسـتمارة عضوية الحزب الحاكم وإذا رفضت، يضيع الشـغل، وأرجـع أدور وألف من تاني، حصار هنا وهناك."

اختنق صوتك.

اقترب عزيز منك، ربت على رأسك:

- اهدي يا مريم، كله بيعدي

حدقت في وجه " حمدان "، متسائلة:

- إلا قولي يا أستاذ حمدان، لازم أوقع

على عضوية الحزب عندكم؟

تلفت " حمدان " حوله، قال:

- لا.. أظن، قسم التصحيح بعيد عن تلك الأمور.

أخذت نفسا قويا:- الحمد لله

قال إبراهيم المصري:

- أنا مقدر حالتك، لكن أنا مش شايف الـدنيا ضـلمة للدرجة دي.

قال " مازن " وقد فرغ من كاسه:

- والله يا إخوتي، أنا وجدت حريتي الوحيدة في حمل السلاح في الجنوب.

رد عزيز:

- لكن لابد من الديمقراطية أولاً يا صاحبي وإلا يسود العنف والفوضى.

احتقن وجه "مازن ":

- هذا هو اختلافنا منذ زمن يا عزيز، بتتذكر كيف كنا ونحن صغار، نحمل السلاح ولا نهاب.

قطب " عزيز " جبينه:

- تقصد أني جبان

عجل " مازن " بالرد:

- معاذ الله، ما قصدت ها المعنى بتاتًا

مرت لحظات صمت متـوترة، قطعتهـا " سـهيلة "، صائحة:

- يا ريت عمو " مازن "، تحكي لنا، عن تعرفك بعمو عزيز.

ابتسم " حمدان " متأملاً " سهيلة ":

- بتريدي تكتبي قصة موهيك؟

هزت " سهيلة " أكتافها ولم ترد.

نظر " مازن " في وجه عزيز الغاضب، قائلاً:

- ياريت " عزيز "، يتكلم، هو أفضل مني في الحكي.

رد إبراهيم المصري:

- أمرنا لله.. قول يا سي " عزيز "

وشرع " عزيز " في الحكي:

" اتعرفت على " مازن"، أول مرة في المخيمات، بعد ما نزحنا مع النازحين إلى الأردن، عام ١٩٤٨، وكان ولدا جامحا

تقول فرس، بنيته قوية وشعره أحمر، وكنا بنتسابق مـين منـا أسرع في صعود التل، ونلعب عسكر وحرامية ونتخانق مـين فينا يكون العسكري ومين الحرامي، ونعمل قرعة وكان "مازن" يغضب لما يرسي عليه دور حرامي ويدور فينا الضرب، وكنت من صغري أحب القراءة، و "مازن " الصيد بالبنـادق الـرش، وفي مرة اصطاد صقر صغير، وكان بيحمله على كتفه مطرح ما يروح، وكنا في المسا، نتلم والأطفال مع نـاس المخيمـات حوالين النار، نتقاسم اللقمة والحلم بالعودة ويدور الشـاي مـع البوح الحزين، ونشم عطر البرتقال، مع ريح الجبل ولما يسود الظلام، يشتد عود النار. واهتمت جمعية رعاية أولاد الشـهداء بتعليمنا، كنا نسمع الدرس على السبورة، ونكرره ونحفظه فـي الذاكرة ولما دخلنا مرحلة الصبا، اشتركنا في عمليـات فدائيـة صغيرة على قدنا وكنا بعد نجاح أية عملية، نـرقص ونغنـي ونتبادل الفرح وفي ليلة اتنصب لنا كمين، وكان معانا اتنين من الرفاق هرب واحد، وأصيب التاني في ضـهره اترمنيـا فـي الحبس، ما يزيد عن السنة، ولما خرجنا عدنا من جديد للعمليات الفدائية، وزاد شبابنا من حماسنا كنا نعبر النهر والظلام، ونعود

رافعين راسنا، وفي ليلة قمنا بتفجير ثكنة عسكرية، راح فيهـا ضباط وعساكر كتير وانقبض علينا، واتحكم علينـا بالإعـدام، رميا بالرصاص ونجح بعض رجال المقاومـة فـي تهريبنـا، وخضنا رحلة مضنية، في وعورة الجبال وأحشاء المسـتنقعات إلى أن وصلنا إلى الحدود المصرية في نهاية عام ١٩٥٤ على ما أظن، واستقبلتنا الحكومة المصرية بترحاب وقامت بتسـكينا وتكملة تعليمنا مجانًا، وكانت أول مرة أشـوف "جمـال عبـد الناصر" وأسلم عليه.

ابتسم "مازن":

- أنا متذكر، أننا اتصورنا مع الريس " ناصر"، لكـن ما بعرف وين راحت الصورة.

قال "حمدان":

- الله يفتح عليك يا عم "عزيز".

صب " عزيز" كأسا وقرقش بعضا من الفول السوداني

قال، بعد أن تجرع كأسه، متأملاً صاحبه "مازن" وكأنما يستعين برؤيته على التذكر.

أكمل حديثه:

" كملنا تعليمنا واتطوعنا في حرب ٥٦ مـع الفـدائيين وكنا أول من بارك وحدة مصر وسوريا عـام ٥٨، وتكفلـت منظمة التحرير الفلسطينية برعايتنا ومصاريفنا، سكنا في مصر القديمة وشبرا والسيدة زينب والحسـين والفيشـاوي وريـش، وقابلنا كتير من المثقفين المصريين، وانضمينا لجمعيات أدبيـة أذكر منها " جاليليو " "أبو للو" واشتركنا فـي مراكـز ثقافيـة واتفرجنا على معارض ومسارح وسينما، ودندنا مـع أغـاني (عبد الحليم وأم كلثوم ونجاة).

تبدل صوت عزيز، صار أكثر شجنًا:

"لكن الحال لم يدم طويلاً، جت نكسة ٦٧، لتحيل حياتنا جحيما عصف بأحلامنا وطموحاتنا، خرجنا بعد قـرار تنحـي "عبد الناصر"، نجري في الشارع زي المجانين واشتركنا فـي مظاهرات ٦٨ واتقبض علينا واترحلنا من مصر، وكان الفراق بيني وبين "مازن "، رحل هو إلى الجنوب اللبنـاني، وانضـم للجبهة الشعبية، ورحلت أنا إلى تونس، كعضـو فـي منظمـة التحرير، وعشت في البلد سنين، اشتغلت في قسم الاتصـالات

في مؤسسة تابعة للمنظمة، أحوالي الماديـة اتحسـنت، لكنـي زهقت من شغل المكاتب وشديت الرحال وأصبحت بينكم هنا".

قال إبراهيم:

- طول عمرك عايش على كف عفريت يا "عزيز"

هز عزيز رأسه:

- ومازال وحياتك

قال مازن:

- هو اختيارنا من الأول ولابـد أن نكملـه توجهـت بحديثك إلى "علي " يا " مريم ":

- سمعت عن الشاعر المصري" صلاح جاهين"

رد سريعا:

- ومن لم يسمع عنه، شاعر كبير، ورسام كاريكاتير

- تعرف رباعياته

فرك شعر رأسه:

- بعضها

- تعرف " أنا اللي بالأمر المحال اغتوى "

- طبعا

- يا ريت تعزفه

شد " علي " أوتار عوده، صائحا:

- بدي تغني معي، أخت " مريم "

احمر وجهك:

- لكن؟

وشجعك إبراهيم المصري:

- غني وإحنا نرد وراكي

هززت رأسك:

- ماشي

بدأ " علي " العزف.

وأنشدت يا "مريم ":

أنا اللي بالأمر المحال اغتوى
شفت القمر
نطيت لفوق في الهوا
طلته ما طلتوش
إيه أنا يهمني
وليه، مادام بالنشوة قلبي ارتوى

عجبي".

ردد الجميع: " أنا اللي بالأمر المحال اغتوى

شفت القمر... "

وهلل إبراهيم: - الله ... الله ... يا عم جاهين.

وبعد انتهاء وصلة الغناء، ركن " علي " عوده، علـى مسند المقعد.

قمت يا " مريم " ومعك " عزيـز " و " سـهيلة" إلـى المطبخ لتحضير العشاء.

وتعاون " علي " مع إبراهيم في تنظيف المائدة

ورفع إبراهيم الأكواب والزجاجات.

وفي المطبخ سألتك سهيلة:

- بتريدي تمن؟

رفعتة حاجبيك:

- تمن؟

أشارت إلى أكياس الأرز.

ابتسمت:

- آه .. تقصدي رز

رددت سهيلة:

- رز!

- أيوه، اسمه في مصر رز، وعلى كل إحنا محتاجين ناكل خفيف، إيه رأيك في ساندوتشات جبنة وبيض وبطـاطس محمرة

هزت راسها:

- والله أفضل

قال عزيز:

- وقت كلام ولا تحضير؟

ضحكتما.

فتح الثلاجة، أخرج شرائح لحم، وضعها فـي الفـرن، قشرت سهيلة البطاطس وقامت بقليها، سخنت العيش وجهـزت السلطة يا مريم.

خرجتم ثلاثتكم من المطبخ ومعكم صواني الساندوتشات واللحم المشوي والسلطات وانقض الجميع على الطعام، أجهزوا عليه في الحال، وبعد الانتهاء، صاح عزيز مسترخيا:

- على فكرة مفيش أجدع من أبي خليـل فـي عمـل الشاي.

قام إبراهيم متحمسا، ودارت الأكـواب مـع الدردشـة والدخان.

نظر مازن في ساعته، قام فجأة، مر بين الجالسين حتى وصل إلى باب الشقة، أدار مقبضه، قائلاً:

- أستودعكم الله، لابد أن يطلع علي النهار في لبنان.

خطا عزيز نحوه، تهامسا، تعانقا.

لحق " حمدان " بـ " مازن ":

- خذني في طريقك، عندي دوام من باكر

وعلى عتبة الباب المفتوح، قال عزيز:

- طمني على أخبارك، ماشي.

وفي سرعة متلاحقة لخطواتـه علـى السـلم، صـاح "مازن"، دون أن يلتفت:

- إن شاء الله، سلام

أغلق عزيز الباب وقبل أن يهم بالعودة إلـى جلسـته، سمع صوت كركبة صادر من غرفة النوم.

وقف منصتًا، وبعد دقيقة، قال:

- يظهر أن مروان فاق

رد إبراهيم:

- عال، ياللا بينا، نقومه ونخليه يوصلنا بعربيته دخل عزيز الحجرة، وخلفه إبراهيم، شدا "مروان" من ذراعه، ونجحا في إنهاضه من فوق الفراش، ترنح في مشيته مغمغًا:

- وين أنا؟

دفعه إبراهيم إلى الحمام، وضع رأسه تحت الصنبور.

أحضر عزيز منشفة، جفف رأسه.

أعدت مريم، فنجان قهوة من أجله، احتسى "مروان" البعض منها صائحا:

- آسف يا جماعة، أزعجتكم

رد إبراهيم:

- لا إزعاج ولا حاجة، المهم، أنت كويس دلوقت؟

هز رأسه:

- الحمد لله

احتسى آخر رشفة من قهوته، قام، باحثًا في المكان:

- المفاتيح

فتش الجميع معه، فوق المقاعد وتحتها، إلى أن وجدها "علي" خلف مقعد جانبي.

ساعده عزيز في توضيب ملابسه:

- الحمد لله، أنت كنت في حال وأصبحت في حال.

أدخل " علي " العود في كيسه القماش، ودخلت " سهيلة" الحمام وخرجت معلقة حقيبتها على كتفها:

- أنا مستعدة

وصاحت مريم:- وأنا جاهزة

توجه " عزيز " نحوك، ضم سترتك علـى صـدرك، هامسا:

- كوني على اتصال.

نزلت خلف الباقين، وعزيز على رأس السلم يلوح لـك بيده.

تكدستم داخل عربة " مروان " التـي انطلقـت تشـق الضباب.

***

كانت الإضاءة خافتة، لا تفرق بين كائنات وملفات.

مشيت في ممر طويل يا مريم، دخلت حجرة جانبيـة، ضيقة، واطئة لا توجد بها نوافذ، وإنما كوات أعلـى الجـدار، تدخل بصيصا من الضوء وحيزا من هواء مكتوم.

قامت أقربهم إلى البـاب بـالتعريف، أشـارت إلـى المتواجدين قائلة:

- " نزيهة "
- " غزوان "

وبسبابتها أشارت إلى نفسها: - " سهاد "

وبعد عبارات الترحيب من مرحبا وهلا فيك، جلسـت على مقعدك، أمام مكتبك يـا مـريم، المكـدس فوقـه أوراق للتصحيح.

قال " غزوان " بعد فروغه من ترتيب بعض الأوراق:

- بدنا نطلب لك شيء، يا أخت مريم.

هززت رأسك:

- أشكرك، يكفيني شعورك الطيب.

قامت " سهاد"، دارت حول مكتبها، اتجهت قبالتـك يـا مريم، وقد كانت قصيرة، بدينة، عيناها خضـراوتان وشـعرها كستنائي، تعقصه بشريط خاف ظهرها.

قالت وقد غلبها حماسها:

- اليوم، أنت ضيفتنا.. ها.. بتريدي شاي أو قهوة.

ابتسمت يا مريم:

- شاي كشري، السكر برة.

فركت شعرها:

شو كشري؟

رد " غزوان ": - كشري، أكلة مصرية، موهيك؟

رفعت " سهاد " حاجبيها:

- ماكو أكل في المصلحة، ماكو غير الشاي والقهـوة، اصطبري خيتي، بعد الدوام، نحضر لك طعاما و...

قطعت كلامها:

- الشاي الكشري، خليط من الشاي الناشف مع السكر، يصب فوقها الماء المغلي، فهمتي؟.

ضحك الجميع بملء صدورهم إلا " نزيهة " التي وقفت فجأة، تدق بيدها على المكتب:

- بيدنا ننهي أعمالنا، ماكو وقت.

كانت " نزيهة "، نحيفة بشكل ملحوظ، عيناها سوداوان، ضيقتان وشعرها قصير.

صمت الجميع أمام ملامحها الحادة.

نظرت إلى الأوراق المتراكمة فوق مكتبك يا " مريم ".

تساءلت:

- " كيف سأقوم بتصحيح كل تلك الحروف في هـذه الإضاءة الخافتة، وداخل هذه الحجرة الخانقة؟

الوضع لا يبشر بخير.

مرت الأيام الأولى للعمل في هدوء حذر، رغم تـودد "سهاد " إليك كل صباح:

- أرجوك، آنسة " مريم "، قولي صباح الخير

ترددين:- صباح الخير

ترجع " سهاد " بظهر مقعدها: - الله، أديـش لهجـتكم حلوة يا مصريين.

كانت " سهاد " على قدر كبير مـن العفويـة، عكـس "نزيهة " التي يكتنفها حذر ملحوظ في عينيها الصقراويتن، أمـا "غزوان " فقد كان في حاله كما يقولـون، مسـالما، محـاولاً ترضية جميع الأطراف.

وضعت " سهاد " كوب الشاي على مكتبك يـا مـريم، وجرت لتحضر مقعدا وتجلس قربـك، معطيـة ظهـرك لـ ـ "نزيهة".

سألتك في صوت خفيض:

- كيف حالكم في مصر، وكيف حال " عادل إمـام " واحشني والله، عندي معظم أفلامه ومسرحياته فيديو، ومن وقت قريب رأيت وعائلتي مسرحية: " شاهد ما شفش حاجة "، حلوة كتير والله، بتعرفي شوفتها ثلاث مرات.

قال " غزوان ":

- المسرحية فيها إسقاط سياسي على فترة السادات.

نظرت " نزيهة " نظرة غير مريحة نحوك يا " مريم "، ويبدو أنها كانت منصتة جيدا للحوار، قالت:

- تحبي نناديك ساداتية، أو ...

ضحكت، ضحكة صفراء، مردفة:

- ماكو داع

احتقن وجهك يا مريم، رددت وقد مس التوتر صدرك:

- أنا لا أقبل أن يصفني شخص أيا كان، بأنني ساداتية أنا " مريم "، احفظي الاسم جيدا، وأعمل في المكـان هنـا، لا أكثر ولا أقل، أرجو أن يكون ردي واضحا.

شددت ورقة من الأوراق المكومة على مكتبك، أمسكت القلم مردفة:

- وكفاية، أننا بندفع تمن أخطاء وغباء غيرنا.

تكهرب الجو.

عادت " سهاد " إلى مكتبها، دافسة راسها بين أوراقها.

شغل " غزوان " نفسه بترتيب ملفات أمامه.

زمت " نزيهة " شفتيها، وقفت فجأة، صائحة:

- تقصدي أني غبية؟ مـو.. هيـك، والله أنـتم يـا مصريين ...

ألقيت القلم يا مريم، وفي حـزم غيـر مسـبوق لـك، قاطعتها:

- ما تكمليش، وأوعي تغلطي

انكمشت " نزيهة " في مقعدها.

قال " غزوان ":

- هي لا تقصد إهانتك يا أخت مريم

رجعت إلى أوراقك، متمتمة:

- أو تقصد

لملمت " نزيهة " أوراقها وحقيبتها - أسرعت الخطـى نحو الباب صائحة:

- ما يصير هذا الوضع، والله ما يصير زاد المكـان توترا، وانشغل كل واحد بحاله في صمت.

أضحت الأيام متشابهة يا مريم، تجلسين كل يوم، على نفس المكتب وتحت نفس السقف الواطي والإضاءة الخافتة فـي دائرة من الغربة والسأم.

وحدث أن ألقيت نظرة، ذات يوم، على مكتب " نزيهة" الشاغر.

صحت:

- يا ترى " نزيهة غايبة ليه، مش عادتها

رد " غزوان ":

- ديري بالك على عماك آنسة مريم، لا تحتاج "نزيهة" إلى العمل مثلنا.

مطت " سهاد " شفتيها: هي لا تزور أحدا ولا تحب أن يزورها أحد.

رفعت كتفيك صائحة:

- هي حرة، أنا غرضي نقوم بالواجب.

أخرج " غزوان " منديلاً من جيبه، جفف عرقه، تنقـل بعينيه بينك وسهاد، قال في صوت خفيض:

- مصرح للزميلة " نزيهة باستثناءات فـي الـدخول والخروج والتوقيع في كشف الدفاتر وكذلك في المكافآت مقابل أن .....

ألقى ببصره، خارج الباب، دار برأسه في الحيز الضيق للمكان من السقف إلى الأركان.

انتظرت أن يكمل كلامه، لكنه آثر الصمت.

قلت:

- قصدك عصفورة يعني

لم ينطق.

رفعت " سهاد " حاجبيها:

- شو عصفورة؟ شو بتقصدي " مريم "

هززت رأسك:

- يعني بتنقل أخبار المكتب، وتسجل تقارير عن كـل واحد.

وضعت " سهاد " سبابتها على فمها:

- هش ... الحوائط لها آذان.

ساد الصمت المكان.

هفوت إلى هواء نظيف يا مريم.

أسرعت بعد الدوام، إلى موقف الباص، اعتليت مقعدا، لاصق وجهك زجاج النافذة.

البيوت والشوارع والمارة والأشجار والحوانيت تمـر أمام عينيك، سمرة الوجوه، صياح الأطفال، نداءات الباعة، أمام عربات اليد المكتظة الملابس القديمة والأجهزة واللعب والصور والمشغولات، مشاجرات النسوة أثناء الفصال علـى الأسـعار والخطى المسرعة لرجال يتضـاربون بالأكتـاف، الـدكاكين

الضيقة والمآذن والمقاهي والأزقة والمشربيات وروائح الخبز، والبخور والنراجيل، وكأنك في حي من أحياء مصـر القديمـة وكأنك، معلقة في زمن يتأرجح بك بين غربة الـروح وغربـة الوطن يا " مريم ".

مست روحك أغنية، دندنت:

" يا رايحين الغورية ... هاتوا لحبيبي هدية.. "

الأصابع متشابكة، الخطى ثابتة، الصدر مفتـوح علـى عالم جميل تديران دفته معا.

هكذا.. كان حالك أنت و "سـعيد "، حبـك الأول يـا "مريم"، تتمشيان في حي الغورية، تتفرجان علـى المشـغولات اليدوية من عباءات مطرزة ومناديل بـ ـ "قويـة" وسـجاجيد وطواقي وشالات وحلي.

تشمان عبق التاريخ المطل من المشربيات وباب زويلة وقصر الغوري وسور مصـر القديمـة والبخـور والـدكاكين الصغيرة والجوامع العتيقة والمقاهي وأدخنة النراجيل وتخرجان من الغورية إلى حي الصاغة فـي خـان الخليلـي، وتحلمـان بالدبلتين والأسورة والعش الصغير وتطوفان حول حلقات الذكر

في حي الحسين، وتمشيان في زقاق طويل علـى المسـافر × حيث يقبع الفن بين أرجائها عبر التاريخ، وتصعدان سلما ملتويا إلى دكان مشهور بالفول والطعمية الساخنة تلتهمان الطعام فـي تلذذ × بكما المطاف على مقهى الفيشاوي لتحتسيان الشاي فـي استرخاء.

تلتقي أعينكما، تلمعان بنفس الفكرة "الذهاب إلى بيـت الجدة"

وتستقبلكما العجوز، بابتسامتها الهادئة وسنتها الفضـية البارزة، تحضر إليكم سلة مليئة، تضعها أمامكما على المائـدة، تسألكما إن كنتما جائعين، ولا تفصحان أبدا، أنكما أكلتمـا فـي الخارج.

وتتركما الجدة وحدكما، متعللة بطهي أطباق من الأرز باللبن وتقسم بإنكما سوف تأكلان أصابعكما من حلاوته، وبـين الحين والآخر، تطل برأسها مطمئنة أن كلاً منكما جالسا علـى مقعد بعيدا عن الآخر، وتترك ظلها على الباب.

وتنسيان الجدة بعض الوقت، وتلتقي أيديكما في لهفـة وعيناكما في شوق.

ويهمس سعيد: - أحبك

ويحمر وجهك خجلاً، تهمسين:

- خليك جنبي، ما تفوتنيش

يمسح بكفه الحانية شعرك.

- أنا معك، ما تخافيش

- احلف.

يرفع يده حالفًا اليمين:

- أقسم بالله العظيم، أني لك يا مريم ولن أفوتك حتى أمـوت و...

وتضحكين:

- خلاص، مصدقاك

وتحسان بحركة خفيفة خلف الباب، تبتعدان وظل الجدة فاصـل بينكما.

فردت جسدك على الكنبة المتصدرة الردهة يا "مريم"، أغمضت عينيك محاولة الاسترخاء، لكن هيهات.

طرق يغزو رأسك، فتحت عينيك، الطرق آت من جهة السقف.

أخذت نفسا قويا.. الطرق يشتد

تقلبت، ما من فائدة، قمت، ناديت من شباك المنور، مـا مـن مجيب.

أنصت، قلت لنفسك:

- هذا، صوت يد الهون، يقينًا هي "زوبة" لـم يبـق إلا هـي وأختها "أزهار" في البيت الذي أضحى آيلاً للسقوط.

ناديت مرة أخرى، لن تسمعاك، وإن سمعتاك، فسوف يصرخان كعادتهما وتأخذانك خارج الموضوع:

" لماذا لا يدقان، ألا تريد منهما أن يأكلا؟ وما الذي يبقي واحدة مثلك وحدها في الدار، وإنهما حرتان في ملكهما وهكذا.."

وإن تدخل أحد، وأحب أن يكون طرفًا، لا ينوبه إلا السباب، ولا يحظى منهما إلا بكلمات مبعثرة أو خائبة وربما تهمة.

" وزوبة" و" أزهار " و " مرتضى "، أبناء مالك البيت المتوفى، وقد لحقت به امرأته تاركة ابنتها الكبرى " زوبة " في الخامسة عشر وأختها " أزهار " في التاسعة، أما " مرتضى " فلم يكن قد تجاوز الثلاث سنوات.

ويقال.. أن مالك البيت كان انطوائيا، ضعيف الشخصية أمـام امرأته سليطة اللسان، التي تتشاجر مع خلق الله بسبب وبـدون سبب.

وقد ورثت الابنة الكبرى منها هذه الصفات، حتى في الشـكل، فقد كانت نحيفة، جلدها الأسمر يقترب مـن الصـدأ وأسـنانها بارزة وشعرها أجعد.

" ومرتضى" أكثر شبها بأبيه الخجول ومنساق خلـف سـطوة الابنة الكبرى.

أما "أزهار" فمفرطة البدانة، تتوه ملامحها داخل وجها المكتنز، ومن كثرة تسلط أختها الكبرى على أنفاسـها، أضـحت كفـأر مذعور.

وكان أهل الحارة، يتندرون على هؤلاء الأبناء، مطلقين علـيهم أسماء ساخرة.

ينادون "زوبة " باسم "قوبة "

و " أزهار " باسم التخينة الفشلة

أما " مرتضى " فأسموه البنوته.

وقامت " قوبة " وأختها " الفشلة التخينة " بتربيـة " البنوتـة " بمعاش أبيهما ولحسن حظهما، كان الولد متفوقًا فـي دراسـته، وبعد تخرجه مباشرة سافر إلى بلاد النفط، واكتفى أثناء غربته الطويلة بإرسال مبالغ مالية منتظمة في الشهور والمواسم.

وطلقت " قوبة " مرتين لكونها عاقر، وانتهى بها الأمر بمرافقة زبائن المقهى، يتسلل بعضهم إليها فوق السطوح وأحيانًـا فـي مخبأ المقهى أو ضواحي البلدة، أما "الفشـلة"، فكانـت شـديدة الفضول وتحشر نفسها فيما لا يعينها، مما يسـبب لهـا الأذى ويعرضها للإهانة والضرب من قبل أولاد الحارة ونسوانها.

كنت عند جدتك، ذات مرة، وأثناء تناولكما وجبة العشاء توقفت الجدة عن الأكل، وقامت تتسحب نحو باب الشقة، وفجأة، فتحت الجدة الباب لتندفع الفشلة ويصطدم رأسها بقـوة فـي الحـائط المقابل للباب.

قمت مسرعة، لتخليصها من يد الجدة، وتمكنـت البنـت مـن الإفلات من قبضة الجدة بصـعوبة، هرولـت خـارج البـاب كالأرنب المفزوع وصياح الجدة يلاحقها:

- يا بنت اللي ما تتسمي، مش ناوية تبطلي داءك المهبب ده؟ والله.. إن لمحتك بتلمعي أكر تاني، لتكون وقعتك سـودة، يـا تخينة، يا عرة البنات.

أغلقت شباك المنور يا " مريم "، بعد يأسك من توقف الهون.

نظرت إلى المرآة المهتزة المعلقة على الحائط في الممر بـين المطبخ والحمام، هالك اتساع السواد حول عينيك الشعر الأبيض في مقدمة رأسك.

أمسكت المشط وبدأت في تمشيط شعرك وللحظة توقفت، محدقة في الزجاج.

ألقيت المشط مرددة:

- لمن أتزين؟

الطرق مستمر.

رفعت وجهك للسقف، متسائلة:

" ترى... هل أضحى مصيركِ مثلهما؟ "

آه... يا مريم .. من يدفع عجلات عمركِ الصدئة؟

من بإمكانه المراهنة؟

٣ - الحـــنين

حجرة صغيرة في قلب نفق، يتوسطها سرير الجدة النحاسي، الستائر صفراء وكذلك المفارش والحوائط.

النفق مظلم للغاية.

تشبين على قدميك يا مريم، تحاولين رفع باب جرار، تتقاطع أنفاسك تنجحين في رفعه.

الإضاءة خافتة، شارعك القديم يبدو غائما، ملامح البشر غائبة تنفلت يدك، تسقط في النفق، وفي الحجرة الصفراء، تجدين أفخاذ لحم معلقة في السقف، ويد ضخمة تقطعها بساطور.

ينفجر الدم، تصرخين صراخًا مكتوما.

تجرين بلا هوادة، يقف أبوك في نهاية النفق مرتديا روبه الصوفي القديم فاردا بين ذراعيه بشكيرا رماديا متسخًا، وفجأة، يظهر سرير تجدين نفسك جالسة على حافته، مرتدية قميص نوم قصيرا وساقاك طويلتان عاريان.

يزعق أبوك:

- ألا يرغب أحد في غسل البشكير، لابد وأن يذهب عنه الوسخ.

تتحركين حافية نحو أبيك، تمدين لـه يـدك، يختفـي، تنادين عليه، ما من مجيب.

تفتحين عينيك دهشة يا " مريم "، تجدين نفسـك وقـد غصت في مقعدك، خمنت، أنكربما، رحت في إغفاءة قصيرة.

آه.. يا مريم، تطاردك روح أبيك أحيانًـا، تـأبط ذراع الموت وابنه في الخارج، وحين عاد بعد دفنه، كان همه الأكبر المكان، فهو الذكر الوحيد على بنتين، ولم يكد الأربعون ينتهي إلا وأختك قد طارت إلى زوجها بعيدا في إحدى دول النفط.

وها أنت.. والحوائط تحاصرك في بيت الجدة، والحنين يشدك إلى صدر دافئ يضمك.

تنفست بعمق، وقمت تبحثـين فـي الـدولاب وأدراج التسريحة عن رباط تعقصين به شعرك، وقعـت يـدك علـى مظروف مفتوح به بعض الصور القديمة، كانت الجدة تسـرق بعضها كلما أتت زيارة.

يا ألله.. للحكايات رائحة، تنفذ إلى قلبك الواهن، فتشـع ومضته. نفضت التراب عن أول صورة، ابتسمت، ها هـي أم سفير القبطية بعينيها البقريتين وسنتيها الضاحكتين وعلى يمينها

أم سعيد جالسة في وقار بشعرها الناعم الخفيف وعينيها الدائريتين.

ويلتفت حول تلك النسوة، أزواجهن وأولادهن.

وها أنت... محشورة في الصورة بين " سعيد" و "مينا"، لا يظهر منك غير رأسك وعينيك البراقتين ويظهر في خلفية الصورة عيون القناطر الخيرية.

يجتمع أهل الحي القديم في صباح شم النسيم، يفترشون الحدائق يغنون، يتندرون، يلعبون، يرقصون ويتراقص معهم ماء النيل فرحا باللمة التي لا تنقطع عنه منذ آلاف السنين.

وحين تصوصو عصافير بطونهم، يفردون الجرائد القديمة أو الملاءات على النجيلة، يرصون البيض الملون والخس والليمون والفسيخ والملانة ويختمون بأكواب الشاي حول السبرتاية.

وتنفلتان، أنت و" سعيد" بهدوء من وسط اللمة، لتقضيا أوقاتًا قصيرة معا، بعيدة عن العيون.

وفي المساء، تعدان قروشكما القليلة، تقفان أمام السينما، تتأملان الأفيش، وقد كان لرجل تهوياتـه سـويا، وتسـتمتعان بحركاته المضحكة.

" شارلي"، عم "شارلي " كما كان يحلو لكم أن تناديـاه، تختاران مقعدين في ركن الصالة، وما إن يحل الظلام حتى تبدأ يد " سعيد "، تتحسس طريقها على جسدك يا مريم، تنكمشين في مقعدك، مصدرة آهات خافتة.

وتبدأ الرؤوس تتلفت حول مصدر الصوت، تتنتبهـان، تعتدلان في جلستكما، تشاهدان فـي البدايـة، فـيلم كرتـون، تضحكان على مقالب الفأر الصغير "جيري"، الذي يلجـأ إلـى الحيلة في توريط القط "توم"، وتوم لا يتعلم ويقع في نفس الخطأ كل مرة.

وبعد الكرتون، يتصدر عم " شارلي" الشاشـة بعينيـه الضاحكتين، وقبعتـه العاليـة، وشـاربه القصـير وحاجبيـه المرفوعين، وعصاه التي يلف حولها.

أحيانًا ويصوبها نحو الناس أحيانًا.

وقع " شارلي " في هذا الفيلم فريسة لأنياب الآلات التي يشتغل عليها في المصنع، كان يبدو أمام تلك الآلات كالأرنـب المذعور، يدور كلما تدور ويظل يـدور حتـى يقـع كقطعـة صامولة صدئة من الإعياء ويركله صـاحب العمـل خـارج المصنع، ويتدحرج على الرصيف وقـد سـقطت منـه قبعتـه وعصاه.

ويضحك المشاهدون علـى حركـات " عـم شـارلي" ومشيته وأنينه المتقطع تضحكين و " سعيد "، ضـحكًا كالبكـاء المكتوم.

تضعين الصورة جانبا يا " مريم " وتهمسين:

" آه.. يا عم " شارلي"، كيف تحولت إلى تـرس فـي عجلة لا تكف عن الدوران، هل كنت تتنبأ بما سـيحدث الآن، وهل أضحينا جميعا تروسا في آلات طاغية، لا تعرف الرحمة، وهل ستظل تلك الآلات تدور بنا؟

قل لي، بالله عليك يا عم "شارلي" متـى تكـف عـن الدوران؟.

تأملت الصورة الثانية، وقد كانت متآكلة الأطراف.

ها هو أبوك، طربوشه فوق رأسه مكويا ولامعا، يقـف بين رجال تتذكرين البعض والبعض لا، منهم من مات، ومنهم من رحل عن البلاد مثل صاحبه القبطي "الكسان" الـذي يقـف خلف أبيك في الصورة وقد كان رساما متزوجـا مـن أجنبيـة ويتردد على بيتكم بين الحين والآخر، وفي إحـدى المناسـبات أهدى إلى أبيك لوحة من لوحاته وكانت أشجارا كثيفـة مطلـة على نهر.

زرته، ذات مرة مع أبيك، وكان بيته مزدحما باللوحات والألوان وكانت له حجرة مستقلة، يمارس فيها فنه بين فرشاته، أما امرأته الشقراء ذات العينين الزرقاوتين، فقد كانت تهـديك الشيكولاته والمجلات المصورة، وكان لها حجرتهـا المسـتقلة أيضا، ويعلو فوق سريرها صليب فضي كبير.

ومن ذا الذي يقف منتبها كالجندي على يمين والدك.

وضعت يدك على جبينك، إنه " أبو عوض" ابـن عـم أبيك من الصعيد البعيد، وقد كان شيخًا لقريته الصغيرة، ويتميز بشاربه المبروم.

لم تريه إلى مرات قليلة، وهناك في ذاك المكان البعيد، أنجب ولده " عوض"، بعد أربع بنات، أقام الأفـراح والليـالي الملاح، وحين اشتد عوده، زوجه أبوه من ابنة عمه " محاسن " ولم يكن قد بلغ العشرين بعد.

حضرت زفافه يا مريم، وكنت وقتها طفلـة صـغيرة، ومات أبوه ولم يخلفه الولد شيخًا للبلد، فضل أن يشد رحاله مع امرأته إلى إحدى دول النفط.

وتشاء الأقدار، في دنيتك الصغيرة يا مريم، أن تنـزل ضيفة مؤقتة عليهما في الغربة، ويصير " عوض" غريبا عنك، لم يعد ابن القرية كما كان، وحتى " محاسن " زوجتـه وابنـة عمه، قد تبدلت ملامحها.

آخر مرة قابلتهما، كانت بعد عودتك من مقابلة "عزيز".

فور دخولك، أعطاك " عوض " ظهره، وقد كان مرتديا ببجامة مخططه وجرت امرأته نحوك، وهي تلف الروب حول جسدها، وكلما تحركت، اهتز مصاغها.

صاحت:

- إيه اللي أخرك للساعة دي يا مريم؟

واستدار عوض واقترب منك والشـرر يتطـاير مـن عينيه:

- أنا معنديش بنات، تقعد برة ادلوقت

زم شفتيه مردفًا:

- ما قلنا لك، بدل اللف في الشوارع، تقبلي شـغلانة الأستاذ " عبد الحفيظ"، ماله، مش داخل دماغاك ليـه، دا راس كبيرة جدا في الحزب الحاكم، وحيوصلك معاه فوق، فوق قوي.

وغمزت امرأته:

- لأ.. وعينه منها، بس هي تشاور

ألقيت حقيبتك على أقرب مقعد، صحت، حانقة:

- كملي.. سكتي ليه، متجوز وعنده عيال وأد أبويا.

تصعبت محاسن:

- دا شيء، لا يعيب الرجال

وأكمل عوض: - وبعدين دا له نفوذ كبير في البلد.

استفزك حديث عوض، اقتربت منه، مقطبـة الجبـين، تراجع خطوات.

كان الشيب يملأ رأسه، رغم أنه في بداية الأربعينيات، صحت فيه:

- وسيادتك، طبعا لك مصلحة في التقرب منه، ما أنت بتشيل له الشنطة وتكتب له التقارير، وتسهر معاه، وتسهل لـه أموره، وما خفي كان أعظم.

سقط بثقله على الكرسـي، رفـع حاجبيـه، متسـائلاً: وعرفت منين؟

جلست واضعة ساقًا على ساق:

- البلد صغيرة، ومفيش حاجة تستخبى

جحظت عيناه:

- قولي لي من مين؟

رفعت كتفيك يا مريم:

- مش مهم تعرف

هرعت " محاسن " خاف مقعد زوجها صائحة:

- اختشي يا مريم، عيب

نفختِ غيظًا:

- ومش عيب أنكم ترموني الرمية دي؟

جرت محاسن، لتغلق الباب على أولادها:

- وطي صوتك، العيال تصحى

وقال عوض وقد صارت نبرته أكثر هدوءا:

- يا مريم يا بنتي، إحنا غرضنا مصلحتك

مشت امرأته نحو المطبخ، متمتمة:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أمـا أقـوم أعمـل ليمون يروق بالكم

لحقتِ بها:

- مفيش داع، أنا مرهقة ومحتاجة أنام

خطوتِ في اتجاه حجرة النوم، وقبل أن يفصل بينكمـا الباب،

قلت:

- يا ريت تصحيني بدري مع الأولاد.

ومن مكانك يا مريم، أمام صـورة أخـرى مفـرودة، صحتِ:

- " يا ألله.. من تلك المرأة الجميلة الضـاحكة السـن التي تضع قبعة فوق رأسها كالخواجـات، وقوامهـا ممشـوق كالمانيكان، وتستند بذراعيها على سور السطح، وفي الخلفيـة، مآذن مصر المحروسة".

قربت الصورة من عينيكِ، ياااه.. إنها أمكِ وهـي بعـد شابة حسناء وتبدو كما كان يحلو لأبيك أن يصفها "برنسيسة".

لكن كيف تحول هذا الجسد الجميل إلى سمين مترهل؟

تذكرت آخر مرة حلمت بها، وكان بعد مـوت الجـدة بأيام.

- أتتك متهادية، مرتدية فستانًا أبيض شفافًا، عيناهـا لامعتان وابتسامتها مدهشة.

مرقت من زجاج النافذة المغلق، يحوطها شعاع سماوي صاف.

تقلبت في الفراش، فركت عينيك، تركتِ وسادتك ومـا أن اعتدلت بجسدك إلا وسبقتك خارج الحجرة.

- " درت بين أرجاء البيت، وجدتها جالسـة، مسـندة ظهرها على باب المطبخ وفي حجرها حمامتان صغيرتان.

قلتِ:

- الله، الحمام جميل يا أمي.

تحسست أمك الزغاليل، غنت:

" يا حمام البر هفهف، قوم ورفرف "

أزحتِ الغطاء عن جسدكِ مدندنة يا مريم

وعلى كتف الحر وقف، وألقط الغلة".

تلفتِ حولكِ، الظلمة حالكة وأمكِ غائبة.

أضاء النور، جاءك صوت من الخارج، وكما توقعـتِ، الصوت صادر من المقهى:

- يا بنت السلطان، حني على الغلبان

الميا في إيديكي، وعدوية عطشان

اديني.. اديني.. قطة

دي المية في إيديك... "

ويهال الزبائن، وتصطك الأكواب وينتشر الدخان.

ويصدح المذياع:

على كوبري عباس

ماشية وماشية الناس... ".

أغلقت الشباك، استدرت متمتمة:

- " آه.. كم أفتقدك يا أمي، ترى، ماذا يعني الحمـام في الحلم؟ ولم كنت حريصة على ضمه بين كفيكِ؟.

رحمة الله عليكِ يا أمي، وعلى أبي الذي ظللتِ تحـت قدميه أثناء مرضه، تراعينه، وتقطعين عهدا على نفسكِ، بأنـكِ سوف تخدمينه وإن كان "عضم في قفة، وتكشفين وجهك للسماء راجية:

" رب اجعل يومي قبل يومه ".

كانت أمكِ "عايقة " في شبابها، تغرق جسدها بـالعطر الفواح وترتدي فساتين مطرزة بدوران عند الصدر، كان يطلق عليه وقتها "ديكولتيه شادية"، وكانت تعشق أغنيات " شادية "، تدندنها أينما ذهبت، ولا يفوتها فيلم من أفلامهـا فـي السـينما

وتحفظ أغانيها عن ظهر قلب، ويتمايل خصـرها مـع كتفيهـا وشعرها أثناء غنائها:

" يا دبلة الخطوبة

عقبالنا كلنا

ونبني طوبة.. طوبة

في عش حبنا.. "

كنتِ تندهشين يا مريم، كيف يتمايل جسد أمـك فـوق الكعب الألمونيا الرفيع، وتتسللين ساعة القيلولة أثنـاء نومهـا، لتسرقي هذا الحذاء الساحر من تحت السرير، تنظفينه، وتنتعلينه بمشقة وتنزلين السلالم متمايلة مع رنات الكعب المطرقعة على الرخام.

ويتراقص خصركِ مع فرحك، إلى أن تقعين متدحرجة على السلم وقد أصيب قدمك بالتواء، وانتهـى الأمـر بعلقـة ساخنة.

وعلى الرغم من حب أمك لأبيكِ وحسن معاشرتها، إلا أنه بين الحين والآخر كانت تقوم زوبعة بينهما، وخاصة حـين تزورنا العمة الغير شقيقة التي تسكن البلاد البعيدة.

كان جدك لأبيك من أبناء الصعيد، يعمل في التجـارة، ويتجول في البلاد موزعا تجارته هنا وهناك، وذات مرة، سافر إلى بلاد الأتراك ساعيا وراء رزقه، وقامت الحـرب العالميـة الأولى، ولم يتمكن من العودة طاب له المقام هناك وتزوج مـن امرأة تركية وأنجب منها ثلاث بنـات، كانـت العمـة غاليـة إحداهن.

وكبرت البنات، ومات الجد غريبا في البلاد البعيدة.

كانت العمة " غالية" قليلة الزيارة لمصر، وكذلك قليلـة الكلام، وكانت بيضاء، ذات شعر ذهبي يصل إلى خصرها، ولم يكن يفوتها في سفرياتها القليلة أن تنعم باللمة والدفء المصري حول الحسين، وزيارة المقابر، والتجول في الأحيـاء العتيقـة وشراء النفيس منها والجميل كتذكار من البلد الحبيب وتعود إلى بلدها زائدة حبتين في الوزن، إذ كانت لا تقاوم أكلة الملوخيـة والمحشي وخاصة ورق العنب وكذلك دقية الباميـة والكـوارع وغيره..

كان أبوك يفتخر بأقاربه الأتراك، وحـين يـزداد فـي تباهيه ولا يعجبه أي شيء حوله، يدب الخلاف بينه وبين أمكِ، وتتصاعد المسألة من شجار عائلي إلى قضية.

تضع أمكِ كفيها على خصرها صائحة:

- اسم الله، يا عبد الله، على مجايب برة، أوعى تفتكر أنهم أحسن منا، دول كانوا في الأصل بياعين دخان وصـابون وربنا فتح عليهم ووسع رزقهم بسببنا.

وتجحظ عينا والدك:

- اختشي يا ولية، وخلي عندك دم، دا بدل ما تقولي، كتر خيرها.

- خيرنا سابق يا عنيا، وفي بلادنا تملا منه زكايب.

وفي المساء.. توزع أمك الفطائر المحشـوة بالفسـتق واللوز والملبن، التي جلبتها معها العمة " غالية " في زيارتهـا، وتزهو بين جيرانها، ويلتف الصغار والكبار حـول رائحتهـا، ويأكل الكل في تلذذ وبهجة.

وضعتِ الصورة جانبا يا مريم وابتسمت من القلب.

لفت نظرك صورة مشقوقة من الوسط، وفـوق الشـق لصق متقطع ولكن ما كل تلك الكتل السوداء داخلها؟

أسندت ظهرك إلى الحائط، قربت الصورة من عينيك، إنها أمكِ وخالتكِ وحولهما نسوة يرتدين السواد مثلهما.

كان لك ثلاث خالات، لكن الصورة تخلو مـن الخالـة الصغرى التي تشبهك يا مريم.

كنت لم تتعدي سنواتك الأولى بعد، ومشهد النار العالقة في ذيل ردائها لا يغادركِ:

حيز ضيق بين الحمام والوابور تمـرق منـه الخالـة صارخة والنار تزحف من أسفل إلى أعلى قميص نومهـا فـي سرعة مذهلة.

ولا أحد غيرك في البيت يا مريم، الكل خرج لتعزيـة أحد الجيران، وأنت تتكورين داخل خوفك، تبكين، تصـرخين، وإلى الآن يا مريم لا تدرين كيف اشتعلت النار فجأة.

تتناثر الأقاويل، البعض يقول حادثة والبعض يرجعهـا لهجر الحبيب والبعض يأسف ليأسها، ولا تدرين، كيف جرؤت النار على أكل جسد جميل كهذا؟

لا تدرين إلا شيئًا واحدا، أن الخالة لن تعود أبـدا، وأن اللون الأسود أصبح اللون السائد في البيت.

وترحل ذاكرتك صوب مشهد، طغى فيه السواد، كنـتِ تمشين ذات مرة في شارع من شوارع الغربة، ورأيتِ أكوامـا من السواد موزعة هنا وهناك، على أعتاب البيوت والأرصـفة وفوق الأسطح وفي الحدائق والمساجد والسـاحات والميـادين حتى الشوارع الجانبية الضيقة.

نسوة يلطمن ويعددن، ويشققن صـدورهن، يضـربن رؤوسهن بالنعال ورجـال يمرغـون وجـوهم فـي التـراب ويضربون بنعالهم رؤوسهم وأحيانًا بالقباقيب حتى تسيل الدماء وكأنه طقس أسطوري من تعذيب الذات.

أسرعت الخطى، متجنبة حلقات السواد، ظللت تجرين، حتى وجدتِ نفسكِ أمام محل الكشري الذي تناولتِ فيه غـذائك أول مرة مع " عزيز " شدكِ الحنين للاحتماء بالألفـة داخلـه، سألت عن النادل " أحمد المصري " الذي استقبلك ببشاشة مـع "عزيز "، وقدم لكِ صورة خطيبته.

قال زميله، أنه قد تم تجنيده، وترحيله إلى الجبهة على الحدود الإيرانية.

فكرتِ في فتاته التي تنتظره، بوجهها الأسمر الجميـل، ذي الملامح الريفية الأليفة.

تساءلت:

" تُرى، ماذا يقول أهله أو أقاربه؟ وهـل تـم الأمـر باختياره أم مضطر؟ ".

تراءى لكِ.. وجه رجل مسن، يقلب في صحنه البارد.

كانت الدنيا مغارب والروح تفر مـع وطـأة الغربـة، البيوت واطئة.

تعاريج ترابية، ملتصقة بخلفية كل بيـت تصـل فـي منتهاها إلى حفر للصرف أطفال يلعبون، يتعاركون في الأزقة، نسوة أغلبهن يرتدين السواد، يمشين جماعات، بخطى وئيـدة، رجال بجلابيب بيضاء ولحى يتجهون نحو الجامع الوحيد فـي الحارة.

وصلت إلى بيت " سهيلة "، المنزل من الطوب الأحمر، دور واحد نوافذه خشبية وبابه من الصاج الصدئ.

طرقت على صاحبه مرتين، أتتـكِ "سـهيلة" مسـرعة بابتسامها الدافئة.

دلفتِ إلى الداخل " يا مريم "، مشيتِ في فسحة مفروشة بالحصير يتوسطها طبلية، فوقها إبريق نحاسي وبعض الأكواب الصغيرة، ويجلس أمامها رجل مسن، نحيل، يقلب صامتًا فـي صحن أمامه.

قلتِ:

- السلام عليكم

كررتِ السلام، لم يرد.

ظل يقلب في صحنه صامتًا

قالت " سهيلة ":

- لن يسمعك.

مشيت خلفها، وقد كانت ترتدي جلبابا طويلاً مطـرزا، تطريزا عربيا.

دلفتما إلى حجرة جانبية، جلستما علـى كلـيم يتوسـط المكان.

ربتت على كتفك:

- مرحبا.. عزيزتي.. نورتِ الدار

رددتِ مبتسمة:

- الدار، منورة بأصحابها

تلفتِ حولكِ.

كانت الحجرة واسعة، ذات سقف عـال، مكونـة مـن كنبتين، فوقهما كليمان، منسوجان، نسجا عربيـا، تتوسـطهما مائدة نحاسية منخفضة فوقها مذياع بكاسيت، حولـه شـرائط، وورق، ومنفضدة مليئة بأعقاب السجائر، وعود مركـون فـي زاوية الغرفة.

دولاب من الخشب العتيق، تتوسطه مرآة حوافها مـن الأرابيسك، وبالقرب من الدولاب، منضدة صغيرة عليها بـراد وكنكة نحاسية وأكواب صغيرة دقيقة الحجم، وبجوار المنضـدة "صوبة " تستخدم في التسخين.

وصناديق كرتونية موزعة بين أرجاء الحجرة مكدسـة بجرائد قديمة وكتب ومجلات.

قالت " سهيلة ":

- أكيد.. نفسك في شاي

قامت، أشعلت " الصوبة "، وضعت البراد الصغير فوق النار، حتى غلت ماءه.

أنزلته.. ألقت الشاي الناشف داخله، أحكمت غطاءه من جديد، رصت الأكواب حوله في الصينية، حملتها لتضعها على الأرض بينكما يا " مريم ".

أدارت المسجل.

شدت فيروز:

ليالي الشمال الحزينة

ظلي اذكريني

اذكريني... "

احتسيتِ شايكِ يا " مريم "، مستمتعة بالود والغناء.

سألتها عن أخبارها.

أمسكت كوبها الصغير، بكلتا يديها، قالت:

- الحمد لله.. ماشية في دراستي، وأكتب بين الحـين والآخر، لكن..

احتست رشفة شاي

حدقت في الحائط

قالت:

- في شيء جوايا قالقني، ومحسسني بقلة الراحة

رددتِ متأسية يا مريم:

- ومين مرتاح؟

وضعت كوبها جانبا:

- بتعرفي، جدي هذا الذي رأيته عن دخولكِ

هززتِ رأسكِ:

- أيوه.. شفته

- هيك صار حاله، فاقد للنطق والسمع بعد غياب ابنه وكان شابا في العشرين، جميلاً، باسما، حنونًا اقـتحم العسـكر البيت، وكنت بعد صغيرة، وسحلوه وضربوه وبحث جدي عنه في كل مكان، أقسام الشرطة، السجن النيابة، السجلات المدنية، الجوازات، المستشفيات... إلخ

ومرت الأيام، وجرت السنون، ولا حـدا عـارف لـه طريق وإلى الآن، لا ندري وين صار، حي أو ميت؛ تصدقي يا مريم، أني أصبحت أخاف من الأحلام.

سرى بينكما صمت حزين، وفيروز، لم تزل تصدح:

ليالي الشمال الحزينة

ظلي اذكريني.. اذكريني ".

صافحتِ زميل "أحمد المصري ":

- ابقى طمني على الأحوال

ردد:

- إن شاء الله.

وانشغل مع زبائنه.

تركتِ محل الكشري خاف ظهرك يا مريم.

عبرت الشارع، لتجدي السواد في انتظاركِ.

سألتِ أحد المارة في الطريق عن السبب.

رفع حاجبيه، دهشًا:

- كيف ما تدرين، أنه يوم كربلاء.

تراءت لكِ صورة الصبي الجميل " علي بن أبي طالب" الذي فدا رسول الله (صلعم)، ونام في فراشه، مجنبا إيـاه أذى الكافرين.

وكيف صار هذا الصبي شابا رومانسيا، فارسا وشجاعا في الحق.

وكقدر المثاليين، وقع في الشرك الذي نصب له بمهارة وسلبت منه المبايعة.

وانقلبت الطوائف، وانقسمت وتعـددت، حتـى أبنـاؤه الحسن والحسين، لم يسلما من الأذى، واجتثت البـذور النابتـة لأية مثاليات، تعوق قيام الدولة واستمرارها.

وفي شجن بمرأى الدم، رددت مع نفسك يا مريم:

" ماذا يفيد الإحساس بالذنب عند الذين انقلبوا على ذلك الفارس النبيل، وبماذا يجدي تعذيب النفس الذي يصل إلى هـذا الحد في إيذاء البدن والروح "

أكملتِ سيرك بمشقة بين العديد والنواح، وسؤال يغـزو رأسك:

- هل أصبحت أيامنا كربلاء؟

هفوت إلى كوب شاي، وضعت مقدار من المـاء فـي البراد.

حدقت في عين النار المتراقصة.

طيف سهيلة يتراءى لك من بعيد، عبرتِ حديقـة فـي منتصفها نافورة تطلق ألوانًا مائية، وصلتِ إلى باب المسـرح، حيث تقف.

صافحتها، لمحت القلق البادي على وجهها، سألتها:

- واقفة من بدري.

نظرت في ساعتها:

- عمو عزيز وعلي تأخرا

- ربت على كتفها: ندخل أفضل

تأبطتِ ذراعها ومشيتما في اتجاه صالة الاستقبال

المكان مكيف، محاط بإضاءات ملونة وصور ممثلـين ومقاعد مثيرة جلستما، تحتسيان الشاي، وقبـل الانتهـاء مـن سيجارتكِ يا مريم، داخل "علي" الصالة مسرعا، وتحت إبطـه عوده، وخلفه "عزيز" يحمل مظروفًا في يده.

نادت "سهيلة " على أخيها، تلفت، وما إن رآها، حتـى هرع إليها.

قالت: أسرع بالله عليك، الفرقة في انتظارك.

تحدث " علي " كلمات سريعة مع " عزيز "، عانقه، ثم اختفى داخل القاعة.

لحقت به "سهيلة" مرددة:

- أسبقكما إلى الـداخل، بريـد أرى " علـي " مـن الصفوف الأمامية

تلفت عزيز صائحا:

- محتاج أشم هوا

وفي لحظات كان خارج المسرح.

وفي دهشة من أمره، لحقتِ به يا مريم.

وبعد عبوركما الشارع إلى الرصيف المقابل، أمسـكتِ ذراعه، موقفة إياه:

- فيه حاجة؟ اتكلم

واصل مشيه.

عبرتما ميدانًا آخر، بعيدا عن الضجة والزحام.

وصلتما إلى شـارع سـاكن وبيـوت ناعسـة ونهـر يصاحبكما في هدوء.

جلس " عزيز" على دكة خشبية تحت شـجرة كـافور، شاخصا إلى حركة الماء في الظلام.

جلست بالقرب منه، صامتة.

أخذ نفسا قويا تلفت حوله، اقترب منكِ حتـى كـاد أن يلاصقك.

قال:

- وصلتني من مصادر موثوقة، أن فيه احتمال بحـل الحزب الديمقراطي الفلسطيني.

صحت منزعجة:

- يا خبر.. وبعدين؟

تلفت حوله، لم يجد إلا الليل الساتر والصمت.

- وصلتني أوامر بتسليم الشقة والرحيل.

حدقت دهشة في عينيه البندقيتين:

- لكن؟

- مازن كان عنده حق

- قصدك؟

- الجنوب

- مصمم؟
- مفيش حل غيره

قمتِ من مكانك، اقتربت من سور النهر، وقف عزيز، اقترب منك أراح ذراعه على كتفك، مطمئنًا إياكِ:

- ما تخافيش

أخذت نفسا قويا:

- وليه ما بلغتنيش
- كان صعب في الظروف دي

رفع بكفه وجهك:

- تيجي ترحلي معانا؟
- معاكم؟
- مجموعة رفاق، ممكن تحصلينا، التدابير في أيدينا
- معقولة؟

ابتسم :

- بس خلي بالك، فيه هناك كلاشنكوف
- حترحلوا إمتى؟
- في أي وقت من الساعات الجاية

نظرت إلى النهر، صامتة يا مريم، تجمع الملـح فـي ركن العين

داعبت نسمة خفيفة شعرك.

قلتِ: - لكن أنت جاي المسرح عادي.

- لازم حياتي تبدو طبيعية، وبعدين كان لازم أشوفك مشيتما بمحاذاة النهر.

توقف عزيز فجأة، نظر في ساعته:

- لازم أمشي

- بالسرعة دي؟

- مفيش وقت، ها، نويتي على إيه؟

اختنق صوتك:

- إذا كان ولابد من الرحيل، أرجع بلادي أفضل.

شد على يدك:

- خلي بالك من نفسك.

أعطاكِ ظهره، ابتعد في خطوات مسرعة، وفي المسافة بين النهر والليل، كانت الوحدة تطفئ قلبكِ يا مريم.

الحوائط الصماء، تخرج لسانها.

الصور مبعثرة على الأرض.

الحزن يقبض على القلب.

هربتِ من سطوة المكان والذكريات في بيت الجدة يـا مريم إلى الشارع.

مررت على دكان البقالة، لعلك تلمحـين كـوثر، فقـد مضى وقت طويل لم تتقابلا فيه.

لم يكن داخل الدكان غير شقيق والـدها الملقـب بـ ـ "مولانا " وأنت لا تعرفين لكِ مولى غير الله عز وجل يا مريم، ولا تدرين من أطلق عليه هذا اللقب، أو محتمل أن يكـون قـد أطلقه على نفسه.

الذي تعرفينه، أنه طمع في الدكان بعد مـوت أخيـه، وشاركه أخوته في طمعه ولم يتركوا للأرملة الشابة إلا نصـيبا ضئيلاً وخاصة أنها لم تنجب ذكورا.

كانت كوثر تقف في الدكان من مطلع النهار إلى حلول الليل، وابنتها الرضيعة متدثرة في بعض اللفافـات والأقمشـة داخل علبة كرتون، تظل تدور كالنحلة، ملبية طلبـات الزبـائن حتى يأويها حيز ضيق في بيت الأقارب.

ولم تحظ بهذا الحيز طويلاً، إذا غارت النسـاء منهـا وسارعن بتطفيشها إلى أن انتهى بها المطاف، بمعاونـة أولاد الحلال في مندرة أحد المنازل القديمة.

خفت الزحمة أمام الدكان.

لمحت امرأة، متدثرة بالسواد من رأسها حتى قـدميها، تتنقل بين الأرفف ولا يظهر منها غير ثقبين حول العينين.

اقتربت المرأة منكِ، قاطعة شرودك:

- أية خدمة يا أخت؟

هذا الصوت تألفينه، وتميزينه بين مئـات الأصـوات. حدقتِ في الثقبين.

تعثرت في الكلام:

- أنا.. أصل

أشرتِ إلى ردائها مردفة:

- معقولة تكوني!

- صوبت من نني عينها، نظرة متفحصة من أسـفلك إلى أعلاك يا مريم وقد كنتِ ترتدين بلوزة وجيبـة، وينسـدل شعركِ على كتفيك.

هزت رأسها:

- الحمد لله أن هداني الله، وأدعو لكِ بالهداية، إن شاء الله.

أشارت بيدها المتدثرة بقفاز أسود:

- اتفضلي جوا

وما إن خطوت داخل الدكان، حتى خرج منهـا عمهـا مغمغما.

نفضتِ التراب من فوق الكرسي الخشبي.

جلست ممتنة:

- أشكرك

أنهت حساب أحد الزبائن، استدارت نحوك:

- اعذريني يا أخت مريم الحال زي ما أنتِ شـايفة، مش قادرة ألاحق على الطلبات.

درت ببصرك بين الأرفف والزبائن، قلت:

- خدي راحتك

- تشربي حاجة

ابتسمت:

- شكرا، خليها بعد ما تفضي، حاكم أنتِ واحشـاني، ونفسي ندردش ونضحك ونهيص زي زمان يا كوثر.

تغيرت نبرة صوتها:

- لو سمحت، لا تناديني باسم " كوثر "، قولي يا أخت يا حاجة، وأستغفر الله.

التبس الأمر عليكِ يا مريم، قمتِ غير مصدقة أذنيكِ.

رددتِ:

- ماشي يا كوثر، قصدي يا أختي، قصدي يا حاجـة، يا.. يووه.

تركتها مع زبائنها وخطوتِ خارج الدكان متساءلة:

أتكون تلك كوثر التي تعرفينها، أم امرأة أخرى خلـف النقاب؟"

سرت في الشارع المؤدي إلى النهر، يهفك الشوق إلى الغائبين.

" أيكون الحلم على الضفة الأخرى يا " سعيد"؟

أم تراه قد أضحى طلقة في الجنوب يا " عزيز "؟

مررت بين وجوه مغادرة وأبواب حديد.

أتاكِ صوت من بعيد "شمس الأصيل"
توقفت.. أنصت..
" ما لناش غير إحنا وأنت في الحلاوة مثيل..
من أين يأتي الصوت "؟
ربما من مذياع في مقهى
أو امرأة تشدو في شرفة
أو رجل يدندن
أم طير يحلق وضحكة طفل
أم هاتف أتاك من فرط الحنين
ربما ...

الفهـ ـرس